إمِلي نَصرالله

اليوبيل الذهبي

طُيُورُ أيلول

نوفل

اميلي نصرالله

طيور أيلول

نوفل

جميع الحقوق محفوظة.

صدرت عام 2012 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان
الطبعة الخامسة عشرة، 2016

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2012
المكلّس، بناية أنطوان
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
twitter.com/NaufalBooks instagram.com/HachetteAntoine facebook.com/HachetteAntoine www.hachette-antoine.com
لا يجوز نسخ أو استعمال أيّ جزء من هذا الكتاب في أيّ شكل من الأشكال أو بأيّ وسيلة من الوسائل – سواء التصويرية أو الإلكترونية أو الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات أو استرجاعها – من دون الحصول على إذن خطّي مسبق من الناشر.

صورة الغلاف: **مها نصرالله**
خطّ الغلاف: **سمير الحداد**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-9953-26-642-8
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-469-213-4

إلى قريتي الطيّبة حيث امتزجت
ذرّات كياني بذرّات ترابها الأحمر.

تمهيد

عندما يحلّ أيلول، تاسع أشهر السنة، تمرّ فوق قريتنا أسرابٌ كثيرة من طيور كبيرة الحجم، قويّة الجناحين، يعرفها السكّان بـ«طيور أيلول.»

ويتلفّت الناس نحو الفضاء الموشّح ببواكير الغمام، يراقبون الطيور، وفي صدورهم غصّات انفعال.

إنّ هذه الطيور المهاجرة تسجّل نقطة جديدة في دائرة الزمن.

ويَذكرون أنّ فصل البرد أصبح على الأبواب.

ويقف شيخ في منتصف الطريق، يسند ثقله إلى عصا سنديان، ويمسح شاربَيه، ثمّ يرسل نظرات متسائلة نحو الطيور، تدغدغ حلمًا عزيزًا.

وتمسح امرأة يديها المبلّلتين بالماء على جانبي ثوبها، وتنفض منديل الرأس لتعيد حزمه من جديد حول شعرها، وتشيّع الطيور بنظرات الحنين.

ويحمل الشباب بنادق الصيد، ينطلقون إلى الحقول والمرتفعات المحيطة بالقرية، يتربّصون بالطيور المهاجرة ليقنصوا واحدًا منها.

والصِبية الصغار يركضون حفاة، يطاردون الظلال المنعكسة على الأرض، ويرشقون الطيور بالحصى، من مقلاع أعمى في أيديهم، ويرغون ويشتمون حين تعجز حجارتهم عن إصابة الهدف.

وثمّة صبايا، لهنَّ عطفٌ خاصّ على الطيور المهاجرة، يرفعن إليها نظرات محمّلة بالابتهال، بالصلاة الحارّة، كلّ نظرة تحمل ألف دعاء وألف سؤال.

ويبقى الحبل موصولًا أيّامًا تراوح بين الثلاثة والعشرة. ويتناقل القرويّون أنباء الطيور الراحلة، وتتلوّن أحاديثهم بلون جديد يحطّم رتابة الحياة البطيئة.

وتتابع القافلة سَيْرَها صوبَ السهول الدافئة في الجنوب. إنّها تهرب من أذى الصقيع في البلاد الشمالية.

تهرب من نفح العواصف الثلجيّة، من شحّ الأرض، وتنشد الدفء في مطارح بعيدة... وتعاود الرحلة في كلّ عام، تسير على درب الآباء والأجداد.

ويبقى طعمُ الهجر يتململ في أجواء القرية أيّامًا. إنّه يعشّش في الكوى، في شقوق السطوح الوطيئة، في المسامّ الصغيرة بين أوارق الزيتون والسنديان، في دموع تفلت من المآقي، في آهات حرّى تندفع من صدور الأمّهات.

وكأنّما الطيور تشعر بالأشجان التي يُثيرها عبورها، وتلقيها مع ظلالها فوق السطوح وبين الأزقَّة، وتتابع رحلتها بصمت.

الصمت الحزين، المرفرف في أجواء القرية، يُنقل إليها، يعصر وجودها ويُخضعها لرَهبة السكون.

للقرية عطفٌ خاصّ على طيور أيلول، رحيلها يعيد إلى الذاكرة صور الطيور الكثيرة المهاجرة. طيور صغيرة أو كبيرة أو متوسّطة الحجم، ثقبت الجدران، وفتحت فيها كوًى لا تكاد تتّسع لأحجامها، ثم رفّت بأجنحتها وأفلتت لتحلّق في أجواء بعيدة.

والسكّان لا يحفلون بعودة الطيور في مطلع الربيع. إنّ أسرابها تتفرّق، فمنها ما يستطيب الدفء في البلاد الجنوبية، فيقيم هناك مسكنه، ومنها ما يعود وحيدًا بلا رفقاء. وكثيرٌ من الطيور تتحطّم أجنحتها في عاصفة مفاجئة تهبّ عليها خلال الرحلة، وتقذفها على النتوء الصخريّ، أو تبلّل أجنحتها، وتهدّ قواها.

وهكذا يبقى طعم الهجر على ألسنة السكّان، ويندحر فرح العودة في غُصّةِ الوَداع، وتغمر دموع الشَوْق الحزين الدمعات الشحيحة في أعراس الفَرَح.

ويتلفّت السكّان، وقد أعياهم العجز، ويصبّون النقمة على القرية الصغيرة الوادعة.

وتعجز القرية عن ردّ السهام الناقمة، أو الوقوف في وجه هذا التيّار المتّصل جيلًا بعد جيل، تمامًا كما تعجز عن صدّ طيور أيلول عن عبور سمائها.

إنّها تحضنهم ولا تدري. تتحكّم بمصائرهم بلا إرادة منها. تُذرّي أرواحهم كما يذرّي الفلاّحون القمح على البيادر. وتسِم وجوههم بقبلة عميقة. ويحملون قبلاتهم كبصمات القَدَر فوق جباههم، ويسيرون في الأرض، في كلّ بقاع الأرض، غرباء فيها، يبحثون عن الكنز الضائع، المدفون في ركن عميق من صدورهم.

ويشعرون بأنّ هناك يدًا، هم أعجز من أن يصدّوها، تعمل على تفرقتهم وذرّهم في عيون الكون، غرباء فيه، يدورون في حلقات مفرَغة يبحثون عن أنفسهم وعن الكنز المفقود.

وفي كلّ عام، يتطلّع من تبقّى منهم مرّةً صوب الفضاء، يراقب الغيوم الرمادية، بواكير غيوم الخريف، ويتابع عدّ الطيور الراحلة...

حين أجلس، هنا، على الشرفة الخضراء، المطلّة على الشاطئ الذهبيّ الدافئ، أفكّر في أولئك الأحبّاء الذين عاشوا معي فترة من العمر.

وكلّما غرزتُ عينيّ في دفق الأمواج الزاخرة، أعود إلى أيّام طوتها الذاكرة بين ثناياها، كما يطوي الأمواجَ الفضّيّة صدرُ البحر الرهيب.

لقد مرّت سنوات على ذلك، وكلّما حاولت عودةً إلى الماضي رأيتني أندفع هاربةً في سبل جديدة، تسطّرها أمامي الحياة.

وترتفع نظراتي فوق أجنحة طائر وحيد لتحطّ معه على شراع أبيض يعبر الآفاق البعيدة.

أهو طائر غريب، لاجئ، ينشد الدفء على الأشرعة المصفّقة فوق الرمال الحمراء؟ أم هو طائرٌ مهاجر واحد من طيور أيلول، تلك التي عرفتها في سماء قريتنا؟

أجل، كان ذلك في القرية حيث جمعتنا عربة الزمن، وسرنا فيها خطًى بعيدة عميقة. ومن ثم هبّت رياح الخريف وذرّتنا كلًّا في اتّجاه لم يحلم به يومًا.

ويدقّ شوقٌ مُلحّ أعصابَ وجودي، فيقتلعني من هذه الهنيهات، فأعود أهيم بين الحقول الفسيحة، أغرس قدميّ في التراب الأحمر الملتهب، أعبّ الماء من النبع المتفجّر قرب كرمنا، وأتلمّس بيدي نتوء الصخرة الكبيرة.

لا تزالُ الأشياء كما تركتها هناك، فالقرية لا تحفل كثيرًا بمرور الأيّام. إنّ الزمن ينزلق على صخورها الصلدة، كما تنزلق شفتايَ، في تعبّد صامت، على الصخرة الرماديَّة.

إنّ الأفق الغربيّ البعيد أبدًا ينتظر في كلّ يوم زورقًا جديدًا ليملأه بالنبتاتِ اليانعة من مشتل القرية.

ومن الشرق، يبقى جبل حرمون، رهيبَ الصمت، حانيَ الأعطاف، ينفحنا ببرودة ثلجه حين يشتدّ القيظ، وتصْلي الشمس بنيرانها الأجساد السمراء بين حقول القمح الذهبيّة.

لا أدري لماذا تخطر ببالي هذه الصور الحبيبة، وأنا أفكّر في استمرار الحياة العنيد، الحياة الزاخرة، هنا، في هذه الحظيرة البشريّة.

أتصوّرها أحيانًا أتّونًا تُلهب جوفه ألسنةٌ حمراء، صفراء، زرقاء... ألسنة نار حيّة، تأبى أن تنطفئ، بل تندلع أبدًا لتصهر النفوس البشريّة، بعد أن تعجنها في جرن كبير كالذي كانت تتربَّع أمامه أمّي في تلك الصبيحة الشفّافة.

إنّ الربيع، هنا، يبدأ في شهر آذار، حين يخرج جارنا أبو الياس فوق ظهر حماره الصبور، يسوق أمامه البقرات إلى الحقول القريبة.

هربتُ من جوّ الغرفة الضيّقة، هربت إلى المصطبة بغلالة النوم، لأعبّ أنفاس الصباح المترعة بالعطر، وقد أخذت البراعم الجريئة تفتّق أرحامها الصغيرة على غصون الأزدرخت في حديقة بيتنا.

والشمس تولد من جديد، في ذلك الصباح، فتهزم اللّسعات الباردة التي خلّفتها ليلة أمس.

وبقيَتْ خبطاتٌ رتيبة تتهادى إلى سمعي من داخل بيتنا، حيث كانت أمّي تروّض عَجْنتها.

لست أدري ما الذي دفعني إلى خلع «صندلي» الخفيف، والتنقّل حافيةً على التربة الرطبة.

كنت أرسم ظلًّا لوجودي التائه، وأنتظر أن تحمى الشمس لتجفّف وجه التراب، وتبقى آثار قدميَّ قبلًا محمومةً تربط كياني بكيان الأرض التي أُحبّ.

وتعودني وجوههم، تتزحلق في خيالي بكلّ العواطف والآلام التي عشناها، فأراها تطلّ من وراء الغيوم المتقلّبة في الجوّ أمامي، حاملةً إليّ صورًا واضحة لتلك الأيّام: ضاحكةً، حزينةً، صامتةً، مرحةً، عابسةً، هامسةً، مصفّقةً، مرتبكةً... إنّها الصور التي تعشّش في الذاكرة، وتنتقل معنا، خطوة خطوة، في المراحل الطويلة التي نقطعها.

أذكر مِرسال.

مِرسال كانت تحمل الربيع حيثما فرشت خطاها؛ تحمله في الضحكة المشرقة، في الشعر الأسود الطويل، في الخطى الثائرة المرحة.

وَراجي... يبقى في ذاكرتي الطيفَ الذي تنشد أغانيه مِرسال.

تتهادى إلى سمعي الآن إحدى قصائدها:

«حبيبي أسمر وحلو،
ليس بين الرجال مثل حبيبي،
في عينيه تعيش حكايات الربيع،
وثورات أشجار الصفصاف على ضفاف أنهارنا.
في ساعديْ حبيبي عزمُ الجبال، وصلابة السنديان.
وقلبه الطفل يحبّني.»

مسكينة مِرسال! كانت تحفظ أناشيد كثيرة ترنّمها في جلساتنا الهادئة، وتبثّها آهاتِ شوقٍ تهيمن في جنبات الوادي القريب.

وَأنجلينا، جارتنا العجوز، أراها، الآن، وقد تربّعت فوق حشيَّتها العتيقة، على عتبة الباب، تكشّ الذباب في الصيف، وتعدّ قطرات المطر في الشتاء، وتحسب الأيّام الباقية من العمر.

لا، أنجلينا كانت أكثر من ذلك، كانت الساعة التي تسجّل كرّ الزمن.

أتراها لا تزال فوق الحشيّة البالية، تمضغ لسانها، وتسجّل مرور الأيام، فوق ثنايا الوجه المغضّن؟

ومريم؟... وفوّاز؟... ونجوى؟... وكمال؟... وعشرات الوجوه الحبيبة... أين انتهت الأحلام التي غرسناها في الحقل المجاور لبيتنا؟

كانت العاصفة عتيّة مثل كلّ العواصف التي تهبّ بين تلك الأودية والجبال، فتهشّم الأشجار الباسقة، وتقصف الأغصان، فتجرفها السيول إلى قعر الوادي.

ويوم اجتمعنا على بيدر القمح، في عشيّة من عشايا الصيف، لم يكن أحدنا يحسب حساب الأيّام.

كنت وحدي أتأمّل المذراة تقلب القشّ الناعم، وتذرّيه. تهديه إلى العاصفة لتعبث به وتمزّقه. ولمحتُ أطيافًا حزينة في عينيْ مِرسال وهي ترسل نظراتٍ متسائلة إلى المقابر القريبة فوق كتف البيادر.

إنّ القرية تحفظ كلّ شيء. حتّى الذين ماتوا تأبى أن ترسلهم إلى البعيد، فهي تضمّهم تحت أجنحتها، تظلّلهم أغصان سنديانة جبّارة، غرستها السواعد السمر منذ مئات السنين.

وهكذا احتضنتنا القرية حفنةً من السنوات، فلمّا انحنَيْنَا نقبّل جدرانها قبلات الوداع، طوت أسماءنا في سجلاّتها القديمة، ووسمت قلوبنا بمياسم ناريّة كالتي كانت تستخدمها «الداية» أمّ منصور لشفاء الأمراض المستعصية عند أطفال القرية ونسائها.

وتبقى نقطة النار تلتهب في قلوبنا. ولن تساعدنا العودة على إطفائها، فنحن لا نعود أبدًا إلى ما كنّا عليه بالأمس. وأمسنا مِلك تلك العشايا الساهرة في ضوء القمر، على سقيفة بيتنا، ومِلك اللحظات النادرة التي عشناها في الماضي، بين الحقول، وكروم الزيتون...

في تلك الصبيحة الهادئة لبثتُ في فراشي.

كنت أصطنع النوم كيلا توقظني أمّي من أحلامي.

هذه اللحظات المختصرة في الصباح هي أسعد أوقات نهاري، ففيها أطير من قفصي الأرضيّ، وأحلّق في أجواء دنيا بعيدة.

كانت آفاق القرية تحدّ أحلامي وأفكاري، وتقاليدها القاسية تضرب أسوارًا منيعة حولَ أفعالي، فأسير كما يشاؤون، وأفعل ما يريدون.

وتحسّست ثورة عتيّة تجتاح كياني في تلك اللحظة. تذكّرت أنّ أخي يحزم حقائبه استعدادًا للذهاب إلى المدرسة.

لماذا؟

لماذا سمحوا له بأن يطير، هكذا، ومن دون سؤال؟

لماذا أبقى أنا، بين هذه الجدران الضيّقة، أدوس آمالي، وأمرّغ طموحي بقدميّ، أمسح به أرض الغرفة الضيّقة؟

ومددت يدي أتلمّس الكتاب الذي ينام تحت وسادتي. كان كتابًا تافهًا. أحد تلك الكتب القليلة التي أصادفها في بيوت الصديقات.

وتراجعتُ عن القراءة في تلك اللحظة بالذات، فأوقاتُ الصباح حافلة بالحركة والنشاط، وعليَّ أن أنفض عنّي الغطاء الثقيل، وأسرع لإعداد الفطور، ومساعدة أخي في حزم حقائبه.

شعرت بنفحة لذيذة تقرص جسدي، فرددت المعطف فوق كتفيّ، ومسحت عينيّ بنظرة من النافذة الصغيرة، قرب سريري.

كان ذلك اليوم أوّل أيّام تشرين، بدأت فيه الغيوم الداكنة تتوّج الهضاب حول القرية، وراحت الأشجار في الكروم والبساتين تتعرّى من أوراقها.

تشرين؟

وشعرت بغصّة تعضّ بصدري، وتتغلغل في حنايا نفسي. إنّ هذا الشعور يعاودني كلّما لمحت الأوراق الصفراء تترنّح مغلوبة على أمرها، وتدوسها الأقدام.

أهذا مصيرنا يومًا؟

أطلّت الشمس، مُتردّدةً، من وراء حرمون، وغصّت نفسي بحزن صامت ناعم، وتهادى صوت أمّي إلى سمعي؛ لقد تعوَّدت هذا الصوت في كلّ لحظات عمري.

أمّي الطيّبة الحلوة.

«أسرعي يا منى، قبّلي سميرًا. أنسيتِ أنّه ذاهب إلى المدرسة؟»

لا. لم أنسَ. نسيت كل شيء إلّا ذلك. كنت أتمنّى لو أرافقه إلى المدرسة الكبيرة، حيث أغرق في بحار أحلامي، أُشبع نهمًا يأكل قلبي، ومجاعة تنهش أعصابي.

إلّا أنّ أسوارًا عالية متينة من تقاليدَ ومفاهيم وأقاويل كانت تحول دون ذلك.

«علّموها بتخسروها!»

هذا ما كانت تردّده حنّة على مسمع من أمّي في كلّ صباح. وحتّى مِرسال، أحبّ صديقاتي إليّ، فغرت فاها حين جلستُ أحدّثها عن طموحي: «ولكن، ماذا يقول الناس؟ تذهبين إلى المدينة، وتعيشين فيها وحدك مثل الشباب؟ إنّك، ولا شكّ، تمزحين يا منى!»

ولم أفهم كيف تجول هذه الأفكار في رأس مِرسال؟ كيف أقنعوها حتّى باتت ترى بأعينهم، وتنطق بألسنتهم؟

اقتربتُ من سمير أطبع على خدّه قبلة الوداع، وأهمس في أذنه: «ليتني معك يا أخي!».

وانطلقت العربة، تحمله بعيدًا عنّا، وتحمل نتفًا من ذاتي تطايرت ترافقه على طريق أتوق إلى سلوكها.

وعدت إلى الواقع، على صوت أمّي: «مِرسال في انتظارك قرب العين. ستساعدنا اليوم في قطاف الكرم».

ووصلت مِرسال في تلك اللحظة: «لم أشأ أن أسبقكِ، يا منى، فجئت أرافقك من هنا».

ثمّ اقتربت تهمس في أذني: «راجي سيقطف الكرم اليوم».

ابتسمتُ وأنا أجترّ سرَّ اندفاع مِرسال باكرًا إلى مساعدتنا.

وفي الدار، كان والدي قد أعدّ كلَّ شيء: حزم صحّارتين من الخشب فوق ظهر الحمار، وهيّأ لنا السلال، بينما تأخّرت أمّي بعض الوقت، ريثما تنتهي من إعداد «الزوّادة».

راح الحمار الصبور يلفّ أمامنا الطرقات الجبليّة الوعرة، ونحن نقلق الصمت بأحاديث مقتضبة، وتحيّات متقطّعة نصبّح بها من نصادفهم من القاطفين.

لاحظت شوقًا ملحًّا في عينيْ مِرسال وهي تتطلّع صوب الكروم، تبحث فيها عن راجي.

مررنا قرب كرمه، قبل أن نصل إلى كرمنا، فلم نلمح له أثرًا. ومات الشعاع في وجه مرسال وهي تتمتم: «لماذا لم يأتِ؟ سمعت حنّة بالأمس تعدُّ القاطفين، وذكرت بينهم راجي».

– انتظري يا عزيزتي. لا يزال النهار في أوّله.

– منى، لا تؤاخذي صراحتي. أنتِ الوحيدة التي أفتح لها قلبي. أحبّه يا منى، أحبّه. إنّه يزرع أيّامي بالأحلام الورديّة. الأحلام فقط يا منى، فأنا لا أقدر على أن أحدّثه، أو أبادله الكلام. أنت تعرفين قساوة أبي.

وطفرت قطراتٌ بلّورية من عينيْ مِرسال، فمسحتها بطرف كمّها. وحملنا السلال إلى زاوية بعيدة، نطلّ منها على كرم راجي.

تربّعتُ فوق التراب الناعم، ورحت أجرّد الكرمة من العناقيد الذهبيّة، وأرصفها في السلّة، ويدا مِرسال تعملان معي، وقد علقت عيناها بالدوالي المجاورة.

ووصل راجي.

هبط علينا كالطيف، ووقف أمامنا بقامته الفارعة، وابتسامته الرضيّة المشرقة: «مرحبا!»

وأجبته وحدي: «أهلًا راجي. أتقطف الكرم اليوم؟»

– لا يا منى، أجّلنا القطاف. غدًا.

وسقط العنقود من يد مِرسال، وهي ترى راجي يقف أمامها.

رفعت يدها إلى شعرها، تتلمّس خصلة ثائرة فوق الجبين، وتابعت القطاف من دون أن تنبس بحرف.

«كيف الحال يا مِرسال؟»

سألها راجي وهو يتعمّد البساطة والعفويّة.

– بخير. وأنت؟

– بألف خير، بلقياكِ يا مِرسال.

ابتسمت مِرسال ابتسامة راجفة، وتابع راجي حديثه:

– سنبيع الكرم، ونخسر جيرتكم الطيّبة يا منى... هوذا أبوك هنا. يعطيك العافية عمّ أبو سمير.

– أهلًا، يا مِيّة مرحبا، تفضّل يا راجي، باركْ.

كتَمَتْ مِرسال شهقة كادت تفضح مشاعرها، وهمست في أذني: – لماذا يا منى؟ راجي ليس بحاجة إلى المال، فلماذا يبيع الكرم؟

وكدت أسأله لولا خجل ساورني، فصمتُّ.

تطوّع راجي فحمل السلّة الملأى، وأفرغها فوق التلّة، حيث تتكوّم العناقيد الخمريّة، الذهبيّة، خائرة القوى. ولبث لحظات يحادث أبي، قبل أن يتابع طريقه بين الكروم.

احترمتُ صمت مِرسال، وانتظرت أن تبدأ الحديث من جديد، فراحت تتابع القطاف، وتمزج الحبّات الناضجة بدمعات أفلتت قسرًا منها، ثمّ سمعتها تقول: «أنا خائفة. أخشى أن تنتهي هذه اللحظات الهانئة يا منى. إنّ راجي هو الأمل النضر الذي يشدّني إلى الحياة، ويدفعني لأطوي الأيّام الرتيبة، ألوّنها بالشعاعات الدافئة التي يبثّها وجوده. لم أكلّمه مرّة. لذلك لا أعرف حقيقة مشاعره نحوي. فأنا أرهن حياتي من أجل لحظة واحدة ألقاه فيها. إنّها النقطة التي تنتهي عندها آمالي ومشاعري. أحبّه يا منى، وهو يحبّني. لقد أكّدت لي عيناه ذلك. كنت بالأمس جريئة، وقحة... لقيته على الطريق، فلم أهرب من عينيه كما كنت أفعل... لبثت أحدّق إليهما، أبحث فيهما عن جواب لتساؤلي.

وعاش هو في عينيّ، ولا يزال. إنّ نظراته القويّة تخبط جدران قلبي، وتدفعُ الدم حارًّا في عروقي.

لم أحوّل نظراتي عنه، كنت أؤكّد له حبّي في نظرة. نظرة واحدة، يا منى، كانتْ حريّة بأن تخطّ فصولًا طويلة في حياتي. وأنا؟ قلت له كلّ شيء. أخبرته بالشوق المضطرم بين أضلعي، بالرعشة اليائسة في يدي، بالعاطفة المحترقة فوق شفتيَّ... أنت تعرفين ذلك من الكتب يا منى، من حكايات قرأتِها، وها أنا أفتح لك كتابًا جديدًا، فاقرَإِي... أرجو، يا منى، ألّا تنظري إليّ هكذا. أنت أقوى منّي ولا تفتحين قلبك بسهولة، ولكن هل أحببتِ؟»

أنا؟ هل أحببت؟

أنا؟ هل عشت لحظة بلا حبّ؟ يا لَمِرسال الطيّبة!

وتابعتُ العبثَ بالعناقيد الدانية، وقد غسل يديّ ما سال من عصيرها. وارتفعت حرارةُ الشمس تصلي وجودي، وتزيد تشبّثي بالتربة الحارّة. ومررت بيديّ الدبقتين على التراب الأحمر الحارّ، ورحت أفركهما، أغسلهما بذرّاته، وأصواتُ طير الوروار تمزّق السكون من حولي، وهي تتناغى فوق شجرةِ التين، تمارس حياتها، تنقر حبّات التين، تتزوّد بجرعات من الدفء والحبّ، قبل أن تَهبط عليها عواصف الشتاء: لقد أحببتُ كثيرًا يا مِرسال.

كان الحبّ مصدر قوَّتي التي تعجبك.

إنّ معاصر العنب تعجّ بالحياة في فصل الخريف، ولكنّ للحبّ معصرةً دائمة في قلبي.

إنّما كنّا نختلف في أسلوب الحبّ يا مِرسال...

كلّما صفّقت قدماي فوق أرصفة الإسفلت المائع، في شوارع المدينة، يزداد قرع الطبول في أذنيّ... طبول غربتي الدائمة.

وأمضي في ترنّحي، أبحث عن وجه من الماضي، يشقّ سبيله في أمواج الوجوه المتدفّقة بين المساكن الكبيرة الضيّقة حيث تصغر الأحجام البشريّة، حتّى تُحشر في علب مقفلة متجهّمة.

وأُغمضُ عينيّ لأسمع أصواتهم بوضوح... إنّي أسمعها تشقّ جدران الصمت المغلّفة بغبار الأيّام، كما تشقّق نبتاتُ القمح النحيلة قشرةَ الأرض لتعيد أناشيدها الخضراء، ترنّمها في آذان الوجود.

ويمتدّ سؤال مِرسال جسرًا يربطني بتلك اللحظات المختصرة من عمرنا.

إنّها، مثلهم، ملك تلك اللحظات الغابرة.

وأشعر بحاجة إلى العناء والجهد لأعيد إليها حرارة الحياة. مثلي مثل نحّات انهار أمامه التمثال، وتحطّم، فجثا على الأرض، فوق نتوء الحصى، وراح يلملم قِطع الجسد العزيز، يجمعها، يحاول إحياءها من جديد.

وقفتُ أمام المرآة الصغيرة المعلّقة على جدار غرفتي، ولبثت أحدّق إلى وجهي، ونسيت نظراتي في عينيّ.

وراحت المشاعر تتقلّب في ذلك العمق البعيد. وعلى ضفّة نائية، كان الصمت الحزين ينصب خيامه.

كنتُ وحيدة، فهربت من الغرفة المظلمة إلى الطريق، إلى كرم الزيتون القريب.

كان الغبار يغطّي قدميّ والساقين، فرحت أنقل خطواتي بين أكوام الحجارة، وأحلم به.

كان الحبّ أنشودة خياليّة، أرنّمها مع العصافير، مع أشجار الزيتون الكئيبة في ذلك السكون الشريد في الآفاق البعيدة.

كنت أرسم له صورة بين الصور الكثيرة المرصوفة في خيالي، حتى بات هذا الرسم الوهميّ هواية اجتهدت في إتقانها لأفزع إليها كلّما ضاقت أنفاسي، ومات الأمل الأخضر في عينيّ.

لم أكن بحاجة إلى درس في الحبّ والحياة أتلقّنه من أمّي، ولكنّي حفظت درسها وسائر الدروس المتهالكة على وجودي.

إنّها مرصوفة طبقاتٍ طبقاتٍ لتؤلّف هذا الكيان، هذه الأنا.

هي مثل الرواسب التي جمعتها الطبيعة من جرف النهر الصغير، في حقلنا الأخضر، عند فم الوادي.

وأتلقّف بيديّ، كما كنت أتلقّف الحصى الملوّنة في الحقل، أقوالَ أبي، نظرتّه القاسية، المستقرّة، إلى الوجود والإنسان وإلى ابنته بنوع خاصّ.

أكاد أراه، الآن، وقد تربّع فوق طرَّاحة وثيرة قرب موقد النار، وأشعَلَ لفافة تبغ، وراح يردّد مواعظه: «البنت الشريفة لا تعاشر الشباب، لا تتطلّع إلى وجوههم...»

وتؤيّده أمّي: «أجل... بالأمس، حدّقتِ طويلًا إلى وجه راجي... هذا لا يليق بالفتاة المهذّبة يا منى...»

ومعلّمتي؟

ألا تزال تعيش في ذلك الكبت القاتل، تصبّ نقمتها الروحية والجسديّة في النصح والإرشاد؟

ومواعظ الكاهن؟

كانت عباراته تتلبّس الشكل الفلسفيّ: «الإنسان مخلوق دنس، والحبّ خطيئة مميتة...».

دنس؟ الكلمة لا تزال جامدة في فكري، تمامًا كما خرجت من فمه في تلك الصبحيّة الباردة.

كنت سابحة مع ضباب البحّور، أرتفع، أحلّق على أجنحة الضباب، أكاد أُلامِسُ القدرة الإلهيّة، حين شقّ صوته فجوة في قلب السكينة.

وكلّما حاولت أن أجد معنّى لكلمة «دنس»، يعاودني جمود الجهالة في تلك اللحظات.

كيف يكون الإنسان دنسًا؟ كيف أكون أنا كذلك، وركبتاي تعانقان البلاط المثلّج، وقلبي ينفطر، يتعبّد ببراءة، يطلب الارتفاع إلى فوق، إلى السماء؟

ويتابع الكاهن: «للخطيئة ثلاثة وجوه... الخطيئة في القول، والفعل، والفكر...»

وكم سددت أذنيّ بعد ذلك وأنا أسمع لحن «ميجنا» حنونًا، يتهادى في الليالي المقمرة، على أنغام المزمار القصبيّ، كَيلا أقع في الخطيئة!

أقوالهم وَسَمَتْ كلّ لحظة من لحظات عمري، وقيّدت اندفاع جسدي وفكري في سبيل واحد، ورحت باكرًا أبحث عن عالم لا تصل إليه أقوالهم، ولا تبلغه انتقاداتهم.

«الحبّ»، تقول أنجيلينا، «نار يحترق الإنسان بألسنتها... ما سمعتو شو صار بمريم؟».

وأنا بقيت أقود خطاي نحو تلك النيران، أكوّمها بيديّ، أحترق بألسنتها، على ضوء وجه أليف ينير عالمي الموحش.

مريم؟

كيف أنسى حكايتك، يا مريم؟ كانت حلمًا مزعجًا رافق حداثتي وشبابي. وها أنا أحاول أن أعيد الحكاية، أن أرسم وجهك من جديد، أن أعرّفَ الناس إليه، لعلّ مشاركتهم تريحني.

ولكن، أتراني أنجح في رسم الوجه الحقيقي بعد الأيّام التي انطوت؟ والحكاية؟

لم أسمعها من بين شفتيك. على أنّي أربط بدءَها بيومٍ خرجنا فيه إلى حقول القمح في موسم الحصاد: كنت أنحني فوق السنابل الذهبيّة، أحزمها بيدي الصغيرة، وأتأمّل، من حين إلى آخر، قطرات الدماء النازفة من باطن كفّي، وأحلم بفيء شجرة، أو جرعة ماء باردة.

كانت الشمس محرقة، وسيل العرق يغسل جسدي، ويُلصق ذرّات التراب الأحمر بساعديّ وقدميّ.

وكانت حنّة تساعدني في ذلك اليوم.

كنّا نعيش الحياة كلّها، بكلّ وجه من وجوهها. وكانت المشاركة أبرز تلك الوجوه.

ومن حنّة سمعت حكاية جديدة، تسلّي سكّان القرية، في الأشهر التالية: «فوّاز يحبّ مريم...»

والقرية تحيا على الحبّ، تعيش حكاياته في الفصول الأربعة، ولكنّها تأبى أن تسمع أخبار الحبّ.

وسمع أبو مريم الحكاية، ثمّ أقفل دون مريم الأبواب.

وختمت حنّة كلامها، ونحن نتربّع فوق التراب الناعم، ونستعدّ لفتح «الزوّادة»: «شو قولكن... معقول يجوّزها لفوّاز؟».

فوّاز... مريم...

مريم... فوّاز...

ربطوا الاسمين، واندلعت النيران... وراحت الحكايات تُرجَّع في أمسيات الصيف الهادئة.

كانت حلقات الجيران تنعقد على مصطبة أنجلينا، وأقبلت حنّة توقد النار: «لازم حَدًا يحكي... أنا من عندي ما بشوف إنّها أحسن منّو... رح يجنّ... ما عبيطلع من إيدو شغل...».

ونفضت أمّ سليم منديلها، وعادت تجمع تحته شعرها الرماديّ الشعث: «من حظّ إمّو إنّها ماتت قبل ما يكبر...».

وتنحنح شيخ الحيّ أبو الياس، وأفرغ كلماته في الحلقة: «أنا بشوف الحقّ على أبو مريم... لو كنت مطرحو بجوّزهن وبستريح...»

ولم يذكر أبو الياس فشل مسعاه حين ذهب ليطلب يد مريم لفوّاز.

لم يذكر كيف ثار أبوها، وكاد يحطّم أثاث البيت حين تلفّظ أبو الياس باسم فوّاز.

«فوّاز؟! مين بيكون هالكلب حتّى أعطيه بنتي؟ كيف بيسترجي يرفع بصرو لوجه مريم؟ شوف، يا خيّي بو الياس، كرامتك عندي كبيرة... بس هيدا شي ما ممكن يصير... ما ممكن.»

وحاول أبو الياس إقناعه، وطرح ورقته الأخيرة: «ولكنّه يحبّها، ومريم بتحبُّو، و...». ولم يكمل أبو الياس عبارته، فقد انتفض والد مريم: «حبّ؟... كلب متل هيدا بيعرفْ يحبّ؟... كلّ عمرو عايش بالزقاقات. يروح يتطلّع عا شغلِه تنفعو، ويترك بنات الناس».

وفي ذلك المساء، سمعتُ جدّتي تتمتم صلاتها، وتؤكّد على هذه العبارة: «نجّنا من التجارب!»

لاحقتني الحكاية لتقضّ عليّ مضجعي، وبقي سؤالٌ عنيد يطرق جدران كياني: ماذا جَنَتْ مريم؟ وماذا فعل فوّاز؟

وهل الحبّ خطيئة؟

فوّاز عاش حياته بلا عطف أنثى. فقد ماتت أمّه بعد وضعه بساعات.

ولم يسعفه مركز أبيه ليحيا في قلب المجتمع، فعاش على الهامش نقطةً زائغة في عين القرية.

عاش مشرّدًا على نتف من المحبّة والعطف تجود بها نساء الجوار، وفتات الخبز والزاد يحملها إليه أبوه في آخر النهار. لقد كان أبو فوّاز ناطور الكروم في القرية.

كانت الوحدة التي مرّ بها الطفل مريرة قاسية، ولم تخفّف من وطأتها فتوّة الشباب.

وفي يوم، التقى مريم على درب الكروم، وجلس يروي لها حكايات أحلامه، ويفتّق الأغشية عن الإنسان الكامن في صدره.

ودمعت عينا مريم وهما تلثمان عينيْ فواز، وتغرقان في الدماء الحارّة النازفة من جراحه العميقة. ومدّ هو يده الخشنة يمسح بها الدمعات السخيّة.

يومذاك، قطع الشابّان مراحل بعيدة في جلسة عابرة على حافّة كرم. وكانت هناك أعين خبيثة تسجّل وجهًا معكوسًا للصورة العذبة، لتلصقه على الجدران الحجريّة الغبراء، في أزقَّة القرية.

انعكست الصورة على حياتي أنا، وراحت تشقّ لي السبل الغريبة الضيّقة.

أذكر يوم طرقت مريم بابنا، ودعتني إلى نزهة في الكروم، فمنعتني أمّي من مرافقتها، وأصرّت على حجزي في البيت: «إنّك لا تشبهين الفتيات الطائشات. أنت تختلفين عن الجميع.»

وأيُّ أمّ لا ترى فتاتها في هذه الصورة؟

وأخلصت أمّي لرأيها، حتّى بتّ أعيش أفكارها، وصرت أختلف عن الجميع.

كانت غلالة من الحزن الدائم تلفّ نفسي. وغارت خطاي في دروب موحشة، دروب الوحدة القاسية.

لم تفهم أمّي لماذا انزويت أبكي في عرس سعد.

سعد ابن عمّي تزوّج.

القرية كلّها قامت تهلّل، وتطرب. كانت فقاقيع المرح تطفو على وجه الكأس، في الجوّ، تلوّن الأصباح السعيدة والأمسيات الحالمة.

أمّا أنا فانزَويت بعيدًا عن هزج الراقصين في عرس ابن عمّي.

كان أبي يرقص في الحلقة. كان يضرب الأرض بقدميه مرحًا. وتحلّقت الصبايا يهزجن ويزغردن. ولمحتُ أمّي من بعيد تصفّق راضية، وقد غمرتها موجة مخدّرة من الانشراح.

وطاشت الرؤوس في حماسة الفرح الجارف، وتسارعت أنفاسي، فهربت من العرس، ولجأت إلى غرفتي... أبكي.

إنّ حزني يتكاثف ويُرغي كلّما انطلق الناس من عقال الصمت، يرنِّمون أناشيد الحياة، ويهلّلون متجاهلين الزمان المتربّص بهم.

رأيت فوّازًا، في حلقة الشباب، شريدًا طريدًا. كان يحاول أن يفرض نفسه ويُثبت وجوده بينهم. وبقيت الحلقة تبصقه، والجماعة تسلخ كيانه عن وجودها، وعيون الصبايا تتغامز عليه بخبث مفضوح: «أين مريم؟»

«عقبال فرحتك يا فوّاز!»

«شدّ الهمّة يا فوّاز!...»

أوى الناس إلى بيوتهم، يلملمون فُتات المرح، يخزّنونها في مساكنهم الضيّقة. وبقيت حلقات صغيرة منعقدة على الشرفات والسطوح.

وفجأة دوّت في الجوّ طلقات نارية، وسُمع صراخ امرأة يشقّ حجب المساء. ثمّ همد كلّ شيء.

ماتت!

مريم ماتت.

قتلها فوّاز.

كلمات قليلة كانت الخاتمة لحكاية حبّ عاتٍ.

فوّاز يئس من الانتظار، فَقَدَ اتّزانه في حفلة الزفاف، فانطلق يدور حول منزل مريم ويدور...

روى الذين شاهدوه أنّه كان يلطم وجهه ويبكي، ويضرب جدران المنزل بقبضتيه، ويمرّغ وجهه بالناتئات الصخرية القاسية.

وأبو هاني اعترف بأنّ فوّازًا اشترى من دكّانه زجاجتين من العرق أفرغهما في جوفه دفعة واحدة.

وظلّ فوّاز يدور حول بيت مريم، وأفلتت من بين شفتيه صرخة يائسة: «يا مريم!».

كانت مريم تقف خلف النافذة، تسمع وقع خطاه، فأطلّت برأسها تبحث عن مصدر الصوت، فانقضّ عليها بقبلة ناريّة من فوهة مسدسه.

بقيت الجثّة وقتًا طويلًا ممدّدة في الزقاق الضيّق، تستحمّ بالدماء الحارّة، والناس من حولها يتفرّجون في خبال، وصوت ذبيح يرتفع على همس الجماعة: «يا بنتي!...»

لم تتحرّك جدّتي من فراشها حين سمعت قرع الجرس باكرًا.

لم تخرج إلى الباب كعادتها، تسأل: «لمن يُدَقّ الجرس؟».

وبقي الجرس يئنّ، يخلع شرايين قلبه في دقَّات بطيئة متواصلة. وظلّ رنينه يحفِرُ في سمعي، ويمتزجُ بنقر حبّات المطر على الزجاج القريب، وعويل العاصفة الهائجة بين الكروم.

كان الموت يخيّم على كلّ شيء.

وبقي الزقاق الضيّق خاليًا من الناس. ولم أسمع حوافر البقرات تنقر الأرض في تلك الصبيحة الكئيبة.

كنت ألمح، بين حين وآخر، سِربًا من النساء تلفّعْن بالسواد، وسرن بصمت وانحناء، كسرب غربان يشقّ سبيله بلهفة إلى حيث اندحرت الحياة، وبسط الموت أجنحته القويّة.

ومن طرف الشارع بدت مِرسال تترنَّح في مشيتها تحت زخَّات المطرة الأولى.

فتحتُ النافذة لأناديها، فهفّت إليّ رائحة التراب، زكيّة، حادّة، وشعرت بثقل الغيوم الرماديّة يهبط على صدري.

كانت أشجار الزيتون مستسلمة بكآبة لرشق المطر، ولم تخفِ سطوح القرميد الحمراء بريق ارتياح للغسل الصباحي.

عانقتني مِرسال، وضغطت يديَّ بيديها، فسرت إليّ رعشة باردة يشوبها القلق والخوف. ولبثتْ واقفة أمامي.

وهبّت علينا من النافذة نسمات باردة، تحمل عويل النسوة.

حين تشدّك الحياة إلى صدرها، ضمن حدود القرية الصغيرة، تربطك بكلّ عصب من أعصابها.

أنت حيٌّ في جذور السنديان الجبّار، في براعم اللوز، في تموّج الحقول الخضر، في وجود الناس الذين يلتصقون بكيانك، ويلتصقون كما يلتصق بعض جدران المسكن الواحد ببعضها لتحفظ بقاءه.

وعندما تنتهي من مرحلة العيش، وتشاء عاصفة عنيفة أن تقتلعك، فهي تقتلع معك أحد الجذور المتعانقة تحت التربة القرويّة.

وحين اجتمع الناس، في ذلك النهار، ليودّعوا مريم، كان كلٌّ منهم يتحسّس المكان الفارغ الذي خلّفه جذرٌ عنيد شدّته مريم معها في رحلتها إلى ما وراء المجهول.

كان الرجال يتوزّعون فرقًا، ويطوفون في صحن الدار، والساحة القريبة، يردّدون ألحان الحداء الحزين، وتتلاقى أصواتهم أو تتنافر. وهم في ذلك كلّه يدعون الطبيعة ومخلوقاتها لتشقّ معهم حجب الصمت، وتغرس فيها أنغامًا جريحة نائحة، وتمسح مثلهم العرق الغزير المتدفّق فوق وجوههم وصدورهم.

ويقف الحادّون لحظات، يلتقطون أنفاسهم، ويستعدّون لنغم آخر أشدّ إثارة، بينما تبقى ألحان الندب النسائيّ تئنّ من خلال النوافذ المشرّعة.

أبتْ مِرسال إلّا أن تحمل وردة حمراء ترشق بها نعش مريم.

ووقفنا في باب الردهة الكبيرة وقد تقلّصت أبصارنا وجمدت حركتنا.

سمعت مِرسال تشهق بالبكاء. وهربت الدموع من عينيّ، فقد شغلتني اللوحة عن البكاء.

لا أذكر كيف بدت مريم بعد الموت.

كانت تقبع، هناك، خلف جدران بعيدة في عالم الصمت الكئيب.

وراحت ألواح النعش ترتفع في عينيّ وتكبر، حتى ضاقت الردهة عن استيعابها. وظلّت الألواح الخشبيّة تتضخّم بالجسد الساكن، وتفصله عن عالمي وتبعده...

وبقيت ألواح الخشب تتقارب وتتدافع لتشقّ الهوّة العميقة بين عالمي الحياة والموت.

وظلّ النعش يحفر في عينيّ، فوق الأرض الفسيحة، تحت شجرة السنديان، وبين المقابر الرهيبة.

ورأيت بطن الأرض ينشقّ، ويتّسع، ثمّ يعجز عن ابتلاع الصندوق المقفل.

عدت من رحلتي البعيدة، أتيه في أرجاء القاعة الصاخبة، وأتأمّل الوجوه الشاحبة الباردة. وجوه قلَّصها الموت، وغرس فيها براثنه الحادّة.

كانت أمّ مريم تشدّ شعرها وتهزّ رأسها، وقد أفلت زمامه من يدها.

وظلّ الرأس يتحرّك كخطّار الساعة، ومن خلفه ندّابة القرية، نعيمة، تجمع كلّ إمكاناتها ومواهبها لتلهب الأعصاب، وتهيج الدموع.

كانت نعيمة تنقّل عينيها، ببراعة وخبرة، بين النساء، تنتقي منهنّ العاطفيّات وتندب موتاهنّ، فتقضي بذلك على رتابة الجوّ...

وكانت تنجح دائمًا، فترتفع أصواتٌ ذبيحةٌ من صدور مكلومة، صهرها الحزن في أفرانه الملتهبة.

بقيت الندّابة تربط بين المواضيع المتنافرة بمهارة فائقة، وترجع إلى ذكر العروس، إلى ذكر مريم.

اللوحة تعيش في ذاكرتي بكلّ حرارتها، بألوانها القاتمة، برائحة العرق تتنفسّها أجساد أجهدها الانفعال.

إنّها تختصر حالة الشرق حين يستسلم للعاطفة، ويدور في محرابها ناسيًا كيانه ومنطقه وتفكيره.

هربنا من بؤرة الشقاء. ودّعنا الأتّون الجهنّميّ. وخرجتُ مع مرسال نتنسّم الحياة خارج الردهة.

ولمحت سربًا من الأطفال تفرّق فوق السطوح المجاورة.

إنّ المشهد يتردّد عدّة مرّات في العام الواحد. وفي كلّ مرّة، يقف الأطفال في صفّ الكبار يشاركونهم في وداع الحياة.

هرعت إلى أقصى غرف المنزل، أقفل النوافذ، أقفلها دون الأصوات البعيدة النائحة. ولكنّ أصواتهم ظلّت تدقّ أعصابي، وتطرق أذنيّ كدويّ عاصفة جبّارة.

حتّى الساعة تعود أصداء النواح تزمجر في أذنيّ، مخترقة جدران الصمت الزمنيّ الرهيب.

وسمعت مِرسال تتمتم: «يا لَقبح الصورة!... إنّ الأبخرة المتصاعدة من نيران الحبّ تكون شفّافة، زرقاء، ورديّة... وها أنا أرى اليوم السحب الكثيفة السوداء تمسح وجه الكون، وجهي، وتطفئ نور عينيّ... أصحيح ماتت مريم؟ قتلها الحبّ؟ قتلها فوّاز؟»

كانت مرسال ترتعد، وقد جحظت عيناها، وشحب وجهها، وغاب بصرها، في الأفق البعيد، من النافذة. وبقيت شفتاها تبوحان: «راجي سيهجر القرية. سيهجرني يا منى، وأبقى أتلمّس الجدران التي بنيتها بأحلامي، وأحيا في هيكل الوهم والخيال.»

لقد زارنا أمس ليقول لي ذلك. لَكَم كان قاسيًا!

وقف في الباب بقامته الفارعة، وسألني عن أبي. ثم جلس الرجلان يتحدّثان، فأدرت لهما ظهري، لأفرغ من كيّ بعض الثياب.

تحدّثا طويلًا عن الموسم وعن إقبال الزيتون هذا العام. ثمّ خرج أبي ليردّ على نداء جارنا، وبقينا وحدنا في الغرفة.

وهدر صوته في أذني: «مِرسال!»

جمدتُ في مكاني. جمدتْ أناملي فوق القميص الدافئ. ولبثتُ أحدّقُ إلى وجهه، وقد تكوّم وجودي في عينيَّ.

تمنّيت في تلك اللحظة لو يقترب منّي، ويجمعني بين ذراعيه، ويهمس في أذني كلمات أتوق إلى سماعها.

وعاد صوته يتلكّأ: «مِرسال، إن حدود القرية تضغط أعصابي، تكاد تقتلني، أنا مسافر يا مِرسال. إنّ هجري سيحطّم قلب أبي، ولكنّ الواجب ينسينا العاطفة...».

وعدت أعمل. عادت يداي تعملان كالآلة، منفصلتين عن جسدي، لاصقتين بالمكواة. وظلَّ صوته يهدر من مطارح بعيدة: «أوصيك بالشجاعة، يا مِرسال. إنّ الحياة تدعوك لتتقدّمي، وتغرفي من كنوزها الكبيرة...».

وظلّ صوتُه ينأى ويبتعد: «وستلقين رجالًا كثيرين. قد يحبّك أحدهم أكثر ممّا أحببتك، فلا تجفلي. أنا أحببتك، وأنت تعلمين ذلك. ومهما حدث فستبقين، في ذاكرتي، أحلى ما في ذاكرتي. وتذكّري، يا مِرسال، دائمًا أَنَّنا التقينا هنا يومًا».

حوّلت مِرسال عينيها عن النافذة، وقد فرشت فوق شفتيها بسمة تحدٍّ: «ضعفتُ كثيرًا، يا منى، وانهارت مقاومتي فبكيتُ...»

كانت الدموع الحارّة تحرق خدّيّ، وتتدحرج فوق يديّ، فتبلّل الثوب أمامي.

وبقي هو جامدًا في الزاوية، ونظراته تخرق ظهري وعنقي.

وحين ضغط يدي، مودّعًا، شعرت بأنّه هدم قصور أحلامي الخضراء. وقفزتُ إلى النافذة، برغم إرادتي، وبقيت أتأمّله يغيب عن ناظري بين الأزقّة المتعرّجة.

مريم لم تشهد الفصل الأخير من مأساتها. أمّا أنا...

وعادت مِرسال تردّد قهقهات هستيرية جريحة. وتلفَّتُّ حولي متضايقة...

اتّكأت على الجدار، فتلاشت صلابته، لتذوب في «جورة» بلا قعر...

لم أدر كيف أخفّف من آلام مِرسال. فقد كنتُ أخاف من تجسيد الحبّ في إنسان. وهكذا بقي الحبّ فارسًا ملثّمًا، يطرق عالمي في اللحظات المقفرة، في ساعات الوحدة والفراغ، يتمشّى معي في الدروب الضيّقة، يتلوّى مع الحروف السود في كتبي، ويملأ صدري نشوةً لا توصف، فتنتعش خطواتي، وتسير لتحقّق رحلتها في سبل الحياة الوعرة.

في الأيّام التالية غابت مِرسال عن فكري، وبقيت تفرش وجهها أمام عينيّ.

كنت أنصرف إلى القراءة فتطلّ عيناها من بين السطور ضاحكتين، دامعتين، وتنهمر دموعي، فأمسحها وأهرب إلى مكان آخر.

ودَهَمَ الشتاء بيتنا باكرًا في ذلك العام. وكان الزيتون لا يزال مكوّمًا في أكبر غرف الدار. وأمّي لم تكن بعد فرغت من إعداد المؤونة، فهي لذلك لا تفارق الموقد، ويدها باستمرار فوق قدر تغلي.

أمّي! مصنعَ الأطايب كانت.

شددتُ نفسي إلى الحلقة الصاخبة حيث تجمّعت حنّة ونجلا والجارات، يساعدن في اختيار الحبّات السمينة من الزيتون الأسود الشهيّ.

والنساء في القرية ينتظرن المواسم التي تجمعهنّ حلقات تتعانق فيها الأيدي وتعمل، بينما تمضي الألسن في تنميق الأخبار.

القطاف موسم.

جمع الزيتون موسم.

تنقية البرغل، وفرك الكشك، والأعراس...

أذكر جيّدًا عرمة من الغلّة، من خيرات أرضنا، ترقد في صحن الدار، ومن حولها حلقة الصبايا، وأبي يطلّ بانشراح ليلقي التحيّة، ويعابث الحلوات، أو يسردُ لهنّ حكاية عذبة تستثير الهمم.

وأخي سمير يخترق الباب بنظرات خجولة، وقد عاشت في عينيه أحلام كثيرة، وعشرات الأسئلة الحائرة.

كان وجود الصبايا يقلب وجوده، ويفرش لونًا من المشاعر المتنافرة على محيّاه.

لقد بدأت أنامله تخشوشن، وأطلّتْ بعضُ الشعرات فوق شفته العليا، متردِّدة، واجفة...

ويهرب سمير من الباب.

أكاد أراه الآن. وفي هربه يؤكّد أنّه يتمنّى لو يبقى.

ثمّ تعود أمّي، وقد أعدّت للصبايا حلوى لذيذة، وقهوة ساخنة مطيّبة بحبّ الهال: «فترة راحة يا صبايا».

أمّي! إنّ وجهك يفرش الراحة أمامي، في سُبُلِ غربتي في هذا الوجود.

كيف تعلّمتِ هذا الفنّ يا أمّي؟

كيف تقوين على عجن الحياة بين يديك؟ على صنعها لذيذة، طيّبة، بسيطة، كما تصنعين القهوة، و«مربَّى» السفرجل والتين؟

وتستريح الصبايا. وتسود الجوّ روح الدعابة والمرح. وتُقلب الفناجين الفارغة فوق «الصينيّة»، ثم تمتدّ الأيدي بشغف، وتتطلّع الأعين إلى حنّة بشوق: «طالعي بختي يا حنّة!»

«شو قولك، جايي العريس؟»

وترسم حنّة مسحة الجدّ على وجهها العاديّ القاتم، وتتناول الفناجين بالدور، ثم تروح تنبش فيها الأسرار.

أسرار تضيق بها الصدور، فتتّخذ من كشف البخت وسيلة للتنفّس.

وتمضي حنّة في جولتها، تمزّق للبراعم الحلوة حجبَ الغيب، وتحقّق الأحلام.

ويجيء دوري.

كم كانت أحاديثك عذبة، يا حنّة! ومع ذلك بقيت تُعذّب نفسي، وتقلّص روحي. وكان الكلام يخرج من شفتيْ حنّة سائغًا، جذّابًا، فتعبّه أذناي بنهم.

يا لَلغد!

يا لَسحره وشوقنا أبدًا إلى استعجال قدومه!

«اسْمعي، يا منى، بالك مشغول، فيه قضيّة محيَّرتك... شخص غريب... يمكن يصير قريب...»

وتتوقّف حنّة لترشق أمّي بنظرة ذات معنى، ثمّ تتابع كلامها: «أنت حائرة يا منى. ولكنّ حيرتك تنتهي بخير. وأمامك مستقبل سعيد، ومال كثير...».

هكذا كانت حنّة تتابع تمثيل دورها في حياتنا.

ثمّ تلتفت إلى أمّي: «شو، يا أمّ سمير، عطيتو قول؟ ما عاد في لزوم تخبّو شي، الضيعة كلّها بتعرف...».

وتزمّ أمّي شفتيها تحاول أن تبتلع بسمة طارئة، لتصطنع دور الجدّ: «متل ما الله بيريد... كل إنسان بياكل نصيبه... إن كان لُو نصيب عنّا، أهلًا وسهلًا...».

ولم تصمت حنَّة. بقيت تخز وجودي بإبر لسانها: «يا منى، اهتمّي بوجهك شويّ. رتّبي حواجبك، ورشِّي شويّة بودره...».

ثمّ تلتفت إلى أمّي: «ما بتلبسْ منى صدرية، يا ام سمير؟ لا تستحي، يا منى، شو بكِ احْمرّيتِ؟ شوفي نجلا كيف بتضلّ على آخر موضة... وإنتِ، عندك سبب...».

وبقي صوتها يهدر وقد نصبت بيني وبين وجودها ستارًا كثيفًا لا تخترقه الأصداء.

عندك سبب!

يا لَهذه المرأة الساذجة! كيف تقدر أن تفهم؟

كيف تستطيع أن تحلّق إلى أجوائي العليا، إلى عالم خلقته، وبيديّ بنيت جدرانه، وأقمت فيه جنَّة سعادتي؟

كيف تفهم أنّ عينيّ شاردتان إلى آفاق بعيدة... بعيدة عن حدود القرية؟ وأنّ قدمّيَّ تتحفّزان إلى الهرب، إلى حيث لا أجد من يخطّط مصيري؟

ويا أمّي، إنّها مشيئتي أنا. أنا أقرّر غدي. وبهذه الأَنامل النحيلة سوف أبني حياتي. أقلع شوكي بيديّ. أتعثّر بين أكوام الحجارة، في الدروب الموحشة، ثمّ أنهض.

ولكن أتسمعين، يا أمّاه؟

كنتِ صامتة بالأمس، حين زارنا ذلك الكهل، يجرّه أبو الياس: «أميركاني... وغنيّ. وشو بدّك أكثر من هيك؟».

تلك كانت مقدَّمة أبو الياس.

وكدت أنفجر ضاحكة، وأنا أبحث عن صورة تشبه الرجلين: كان أبو الياس يتحكَّم بتصرّفات الكهل المسكين كما يفعل صاحب القرد.

أصابني غثيان، وأنا أستمع إلى المتأمرك، يحاول التودد إليَّ: «قرِّبي لجنبي يا حلوي».

وردَّني خجلي واللطف الذي كسبته منك، يا أمّاه، عن ركله.

كيف تفهمين؟

كيف تفهم حنّة ذلك؟

وبقي يمضغ كلامه التافه، ويرطن، ويعرج في حديثه بين عربيّة مهشَّمة، وأميركيّة ممسوخة، وأنا في الزاوية، أبتلع غيظي، وأسكِّن غثيان نفسي، وأحاول أن أبقى الفتاة التي يفخر بها والداها.

وحين غادرنا، وقفتُ في الباب، أعذّب نفسي بشكله. ثمّ لم أعد أعي شيئًا.

كانت المرّة الوحيدة التي غبت فيها عن الوجود. وحين عدت، كنتِ قربي يا أمّاه، تتلمّس أناملك الراجفة جبيني وفمي. ولمحتُ أبي يروح ويجيء في الغرفة، ويضرب كفًّا بكفّ، ويردّد كلمات لم أفهمها.

اقترب أبي منّي، وجثا على الأرض، قرب فراشي: «انتهى كلّ شيء يا حبيبتي. عودي إلينا. لن يفاتحك أحد بهذا الموضوع بعد الآن.»

شكرًا لك يا أبي.

وأين يدك يا أمّاه لأقبِّلها، أمرِّغ وجنتي فوقها، أبلّلها بدموع عينيّ؟

طويلة كانت أيّام اغترابنا.

الساعة، فوق طاولتي الصغيرة، تطرق أبواب الزمن بلا كلال. وأحدِّق إلى عقاربها الزاحفة، أستحثّها على المسير.

ثمّ أقلّب التقويم اليوميّ، أعدّ الأيّام والأحداث.

أيّ أحداث؟

ونحن، إلى أين نمضي؟

وماذا نترك بعدنا؟

وأسمع قهقهات يتردَّد صداها في عالمي المقنَّع: إنّهم يضحكون خلف النوافذ المغلقة.

الجيران يصرخون.

الموسيقى تصدح.

حفلة راقصة فوق سطح العمارة. شابّ يغازل صديقته على الشرفة. ويمزِّق جوف الليل صراخُ طفل ممغوص.

هكذا يقف الناس في المدينة متقابلين. يقفون أغرابًا، يحدِّقون إلى وجوه غريبة، وجوه ربّما التقوها في عالم سابق، أو، عُمْرَهم، لم يعرفوها.

ومن خلف هذه الأمواج الصاخبة ألمح مِرسال.

كانت ترتدي ثوبها الأَحمر الجديد، في ذلك الصباح، وقد ضفّرت شعرها الجميل، وتركت الجديلتين تسترسلان فوق كتفيها. ولاحظتُ أنّ خضرة عينيها ازدادت عمقًا، وقد انعكس فيهما صفاء الصباح، فزادهما تألّقًا، وشرودًا.

كنّا ننتظر يوم الأحد طوال الأسبوع. إنّه يوم لقائنا في الكنيسة. وكانت أيّام الأسبوع تمضي، رتيبةً، باهتة الألوان، نطويها غير عابئَتين بالدقائق، بالساعات،

بالأيّام والسنين.

نطويها، نطوّقها بسواعدنا وقلوبنا... نحبُّها.

أسرعتُ بتسريح شعري وارتداء ثوبي الجديد، الثوب الذي تحفظه خزانتي الصغيرة للآحاد والأعياد، لأيّام خاصّة ترفرف الغبطة في أجوائها، ويسمح فيها القرويّون لأنفسهم بالانطلاق، والدعابة، وذرّ العطر.

كانت أرض الشارع الضيّق لا تزال رطبة، فراحت أقدامنا تغوص في حدقات تتفتح على صدر الطريق.

كنّا نتجنّب الوحول، فنقفز فوق حجر ناتئ لا يزال ينتفض بعد غسل الأمس، أو ندوس خشبة مبلّلة وقعت من يد طفلٍ في طريقه إلى المدرسة.

أطفال قريتنا الصغيرة تلمع وجوههم في عينيّ الآن.

كان شوق غريب يقودهم أسرابًا، في الأصباح الباكرة، في الضباب، وقد لفّوا رؤوسهم بقبّعات من الصوف حاكتها أمُّ لهم أو أخت. وحمل كلٌّ منهم محفظة من قماش، تحوي الكتب والأقلام، واحتفظ بيد فارغة لتحمل «قرميّة» السنديان.

أرى أيديهم وقد احمرّت وازرقّت تحت لسع الصقيع، وبقيت متشبّثة بالخشبة. إنّ المعلّم قاسٍ، ولا يرضى بأن يؤويهم في مدرسته بلا «زوّادة» الدفء هذه.

وهكذا تهبُّ عليهم العواصف، ويلسع البرد أجسادهم، وينصبُّ الماء فوق رؤوسهم، وتبقى الأيدي متعلّقة بـِ«قِرميَّات» السنديان الصغيرة.

في ذلك الصباح أشرقت الشمس سخيّةً، مرحة، متحرّرة من قيود الضباب، وراحت أشعّتها تنعكس على سطح القرميد الوحيد في طريقنا... على قلوبنا.

انزلقت عيناي على الأحمر المستحمّ صوب بستان قريب. كانت أشجار الزيتون تنتفض، ترفع سواعدها بابتهال، وبراحة تشبه راحة تعقّب الوضع...

لقد انتهى الموسِم. أعطت الأغصان خيراتها. سكبتها في معاصر القرية، في خوابي الفخار الكبيرة.

وكانت مِرسال تحثّ الخطى بقربي صامتة، هادئة.

وهكذا بدت مِرسال في الأيّام التالية، الأيّام القليلة التي قضيناها معًا قبل أن نفترق.

وكانت تخرج أحيانًا من ذلك الهدوء، فتثور وتبكي، وتنسى نفسها في بحيرة من القلق الشريد.

صفعتْ وجهي رطوبةٌ محمّلة برائحة البخور والمرّ.

إنّ هذه الرائحة تنفذ إلى خياشيمي في هذه اللحظة. تتصاعد من الأوراق الصفراء، الأوراق التي احتفظت بأغاني مِرسال، وبقيت مطويّة في محفظتي القديمة.

«خذيها»، قالت يومها مِرسال، «خذي هذه الأوراق، واحفظيها لي... ربّما عدنا إليها يومًا...».

كانت تقف تحت شجرة الأزدرخت في دارنا، تودّعني وتبكي، وتشيّع الحيّ بنظرات غشيتها الدموع.

أتوقّف أمام أوراقها الآن، وقد اعترضتني كلمة محتها دمعة، أو أسيء رصف حروفها، ويغشاني الحزن العميق وأنا أراها لا طعمَ لها ولا لون... وأحاول طويلًا أن أصبّ فيها الحياة، وأجتلي السرّ الذي حوَّلها، كما كنت أحاول تمامًا أن أنزع الأسرار من وجه مِرسال في تلك الصبيحة البعيدة، ونحن جنبًا إلى جنب في محراب الصلاة.

لقد سُمح لنا أن ننضمّ إلى جناح النساء في الكنيسة، فجلسنا خلف جدار من الأخشاب المشبّكة، نرى الكاهن وباب الهيكل، ونبقى سرًّا غامضًا في عالم الرجال.

ولاحظتُ مِرسال تقترب من جدار الأخشاب، وتغرز عينيها في إحدى الفتحات الصغيرة، تصوّبها نحو الهدف الذي أخطأته.

بقيت الكنيسة تسبح طوال ساعة في الرطوبة الباردة، وقد حُجبت عنها حرارة الشمس، وأنفاس المصلّين.

إنّ الناس يسجدون، طوال فصل الشتاء، حول موقد يوزّع الدفء، ويهدهد الأرواح، يغيّبها في شبه خدر.

لمحت، في طرف الجناح، جارتنا أنجلينا. كانت تقف جامدة، وقد مسحت وجهها بقناع من الاكتفاء الغبيّ.

كاد جناح النساء أن يكون خاليًا لولانا مع حفنة من عجائز الجوار: أمّ الياس تغطّي رأسها وكتفيها بشال من الصوف الأسود، وأمّ سليم ترتدي معطف

الفرو القديم الذي حمله إليها أبو سليم لدى عودته من المهجر...

ونجيّة...

من كانت نجيّة؟

عرفتها من خلال الأحاديث الهامسة، أحاديث كانت تجمع النساء في حلقات لا يُسمح للبنات بدخولها...

وكانت أمّي تحذّرنا من المرور قرب منزل نجيّة.

وظلّ حدسٌ خفيّ يمنعني من التلفّظ باسم المرأة أمام أحد.

وعاشت نجيّة لغزًا مبهمًا في حياتي. كانت خطواتي تقودني، في كثير من الأحيان، إلى محاولة حلّ العقدة واكتشاف السرّ، فما أكاد أصل إلى شبه معرفة حتّى أذكر كلمات تسرّبت إلى سمعي عبر أحاديث حنّة: «الكلبة... لازم يشْحطوها من الضيعة...».

وبقيت دار نجيّة، في طرف القرية، ركنًا يخيّم فوقه ضباب كثيف من الوهم والغموض.

وأخيرًا فهمتُ مكانة نجيّة في القرية، علمت لماذا تكرهها النساء، ويفتح لها الرجال أذرعهم...

كانت حنّة تسرد الحكاية لأمّي، وأنا في طرف الغرفة أتشاغل بقراءة كتاب.

وكانت الحماسة تختلج بين كلمات حنّة، وهي تؤكّد أنّ الأمر لم يعد يُطاق، وعلى القرية أن تتخلّص من هذه الفضيحة.

والحكاية أنّ أسما، زوجة فريد، كانت تمرّ قرب منزل نجيّة حين لمحت شبحًا يخرج من بابها، ملتحفًا بالظلام، ثمّ يقفز إلى الزقاق بسرعة.

كان الضباب يفرش قناعه الكثيف فوق المساكن. ومع ذلك، فقد لاحقت أسما الشبح، وعرفته، فإذا هو زوجها، فريد.

حكاية حنّة جعلتني أفهم أشياء كثيرة، بعد ذلك...

فهمت لماذا كان الرجال يتجمّعون في الطريق ويتضاحكون كلّما مرّت نجيّة، أو يقتربون منها ويعابثونها، ثم يودّعونها بقهقهات فاجرة... وتبقى أصداء الضحك العابث تدوّي خلفها، حتى يغيّبها منعطف، أو يخفيها جدار.

في ذلك الصباح، كانت نجيّة تجثو على البلاط البارد، تقرع صدرها، وتبكي.

كانت دموعها تنسكب فوق خدّين مقرّحين، وتتدحرج على صدرها ويديها. وترتفع اليدان إلى شعرها تشدّانه وتحاولان اقتلاع جذوره.

ويهزّني نشيجها، فأحسّ أنّني أستحمّ في بركة من الدموع الحارّة.

كانت دموع نجيَّة سخيّة جدًّا في ذلك الصباح. كانت تكفي لغسل خطايا العالم.

انتقلت نظراتي من نجيّة إلى الكاهن. رأيته يدور حول المذبح، وهو في «بذلته» المزركشة بالقصب والمخمل، ويردد الصلوات برتابة وسرعة تذهلان.

كان دفق كلامه يهرب من آذان الناس ووعيهم، ويستقرّ في وجودهم نغمًا غامضًا ساحرًا.

بقي الكاهن يدور حول الهيكل في شبه ذهول، وقد انغمس في الجو إلى حدٍّ أنساه أن يصغي إلى أقواله... وكنت أحبّ أن أفهم الكلام الذي يخرج من بين شفتيه، ويغيم في كثافة البخور، وهمهمة الأصوات المؤمنة.

ولكنّي كنت أعجز عن فهمه، فأستسلم للغموض الساحر في الجوّ وأعبّ، بنهم، شذا البخّور، وتجرع أذناي اللحن الشرقيّ الساحر، اللحن الذي تذوب النفس في حرارته، وترتفع في خفّة الدخان إلى فوق... إلى أجواء علويّة لا يبلغها وعي الإنسان.

قالت مِرسال، ونحن نغادر المعبد: «لم أعد أنام، يا منى... أنا أعيش في دوَّامة من القلق والحيرة. وفي بعض الأحيان، أنسى كيف أنقل خطواتي.

القلق ينهش صدري، ويعقل لساني، ويشلّ حركتي.

لقد عشت طويلًا مع هذه الأحلام الورديّة، مع آمال واسعة. وفجأة هجرتني تلك الأحلام، تاركة يديَّ متشبّثتين بالفراغ.

حتّى الصلاة لا تفيد، يا منى. فأنا عاجزة عن الغوص إلى عمق ذاتي.

وبقيت مِرسال تهذي، والطريق أمامنا تمتدّ، وتبتعد عن حدود القرية. ولم أحفل بحذائي الجديد، فتركته يغوص في التراب الموحل.

لقد تجمَّع كياني في أذنيَّ.»

كانت اعترافات مِرسال تمتزج ببوح الأَرض. وكنت أحسّ بما يشبه الانعتاق من أغلال الكيان البشريّ. وحلّقت نفسي مع الأبخرة المتصاعدة من باطن الأرض، من التراب الرطب، مع اللحن الشرقيّ الحبيب الذي حفر وجوده في

كياني، منذ ذلك الصباح، وظل يمدّ أسلاكه السحريّة، يشدُّني إليه ويعصرني... يصهرني في ذرّاته الخفيّة.

«أبوه!... أبو راجي!»

همست مِرسال باسمه، وهي تُشير بأصبعها إلى حقول القمح الشاسعة على جانبي الطريق.

أبوه!

كان يكفي أن تقول ذلك لأعرفه. القرويّ لا يلفُّ أو يتفلسف على الطبيعة. فساعة يطلّ المولود البكر، يتوقّف كيانه الفرد، ويصبح أبا فلان، أو أمّ فلان، ويلاصقه النعت، يرشق سمعه من أفواه الآخرين، يفترش أديم جسده، يأكل معه ويشرب وينام ويقوم.

ويمتلئ صدر الأب فخرًا، وينتفخ اعتزازًا وهو يسمع الصحب ينادونه: «أبو الياس»، «أبو منصور»، أو «أبو حسن»؛ ويسير في شعاب الحياة لينطبق عليه النعت بإخلاص وجدارة.

بدا التحوّل جليًّا في وجه الرجل. لمحتُ القنوطُ وخيبةَ الأمل يجتمعان فوق رأسه، في الأخاديد العميقة على صفحة وجهه، في امتداد أنامله.

أجل، لم يبقَ أبو راجي الذي عرفته.

كان ذاك مضرب المثل في النشاط والجلد: قبيل الفجر يسمع الجيران صوته، وهو ينادي راجي، ليرافقه إلى الحقول، ولا يحول دون ذهابه فصلُ حرّ أو برد.

ويمضي حماره الصبور تحت حمل البذار والزاد، فيوقظ بنهيقه النيام في المساكن الممتدّة على جانبي الطريق الرئيس في القرية.

كان أبو راجي منبّه القرية.

لم يكن هناك من يسبقه في الغرس، وفي القطاف. وإذا اضطرّه العمل إلى النوم في الحقول لا يأوي إلى بيته، بل يبقى مع الأرض، يسامرها، يعطيها، يصل شرايينه بعروقها، فإذا هما واحد.

«يعطيك العافية عمّ أبو راجي!»

تلفّتَ وقد جفّله الصوت: «أهلًا بالصبايا الحلوين!...»

كان غارقًا في الأثلام الضاحكة، وكانت يداه غائصتين في التراب الأحمر الرطب، تنزعان منه حصى وقحة تجرّأت فطفت فوق الأرض الناعمة، فاغتنم أبو راجي يوم الصحو لينقّيها، قبل أن تنبت حبّات القمح.

لا، لم تكن في حركاته الحماسة التي عهدناها. ازداد عمق الأخاديد في وجهه، وانطفأ شعاع عينيه، وتهدّلت الكوفيّة على كتفيه تشارك في كآبة اللوحة.

لم يداعبنا أبو راجي كما كنّا نتوقّع. بقيت عيناه غائصتين في الأرض، تفحصان حفنة من التراب الناعم وكأنّهما تعرفانه للمرّة الأولى.

لكزتني مِرسال لأبدأ الكلام معه. وكنت أفضّل لو أصمت، وأقترب أشاركه في تأمّلاته.

«ما كنت في القدّاس اليوم؟»

وجاءني جوابه زفرة عميقة: «الصلاة للصبايا والشباب... نحن ولّت أيّامنا يا بنتي... هيدي أيّامكم. الحاضر والغد بين أيديكم... وأنا ما بقالي غير هَيْدي...»

ورفع حفنة تراب بين يديه، ثم ذرّاها في الهواء، فتساقطت في خطّ مستقيم.

كانت الأرض مرجعه الأخير، وأصدق من يصغي إلى شكواه، فهل لجأ إليها يشكو وحيده؟ هل صلّى للأرض وابتهل إليها، مؤمنًا، لتعيد راجي إليه، إليها؟

وتابعتُ: «أقادم راجي ليعاونك؟»

وهزّ الأب رأسه. ثمّ أطلق نظرة إلى الأفق البعيد: «هناك. راجي هناك... خلف تلك الآفاق البعيدة.»

ومضى في حديثه كأنّه يخاطب نفسه: «كان معي، بالأمس، رفيق الرواح والغدوّ. وكان وهج شبابه يلفح هذه الربى، يلفح وجهي، فأعود أحيا شبابي في سمرة وجنتيه. لقد ضاقت به هذه الأرض. ضاقت بطموحه. لم يعد يطيق رائحة

التراب. بات صوت المعول يمزّق أذنيه. قال لي ذلك بالأمس. أخبرني أنّه ينوي السفر، ينوي هجري، وهجر أرضنا الطيّبة. عطاء الأرض لم يعد يكفيه».

ثمّ حوَّل نظراته إليَّ:

«انظري إلى ذرَّات التراب ترَي في كلّ ذرة شعاعًا من نور عينيّ، وقطرة من دماء قلبي، وغُمرًا من أحلام شبابي.

كنت، طوال عمري، أعيش من أجله، وأحلم به... فأراه يسير هنا في هذه المسافات الشاسعة، يسير كالطود، كالملك في مهرجان عيده. مذ أطلَّ راجي على حياتي وأنا أرى الطود يشمخ، ويتعالى، وأرى الملك الصغير ينمو، ويقترب من عرشه، ليتسلّم المفاتيح. وإذا به يتحوَّل، فجأة، إلى نسر قويّ، يستخدم قوّته للتحليق في الآفاق البعيدة.

سوف يهجر راجي أرضنا الطيّبة مع من هجروا، وأبقى، أنا، أسامرها، أهدهد جراحها، حتى تغيّبني في أحد تجاويفها.

أنا لا أخاف الموت يا بنيَّتي، ولا الحفرة الصغيرة المظلمة. لا أخاف ملاصقة التراب. سوف يسعدني الموت، إن هو أقبل ليحوِّل جسدي إلى ذرّات تغني تربة حقلي. ولكنّ الذي يحزنني هو أن لا يكون راجي ممّن يسعد بجني الخيرات.»

مسحتُ دمعة اغتصبت سبيلها إلى عينيَّ. وعبثًا حاولت أن أجد كلمة أقولها له.

وكانت مِرسال تحدّق إلى وجه الشيخ ذاهلةً، وقد راحت في شبه غيبوبة. ثمّ رأيتها تتحفّز للاقتراب منه أكثر... ربّما للسجود بقربه على الأرض. فربَّتُّ كتفها وأنا أتصنّع الابتسام، وعدنا نخبط في الطرق المتعرّجة.

«شكرًا يا منى. شكرًا. لقد أنقذتني من تلك اللحظة.»

قالت مِرسال ذلك بصوت يشبه الهمس، وتابعت:

«كدت أقدم على عمل جنونيّ. لا أدري ماذا أصابني، فقد نسيت نفسي، وبتّ أشعر بأنّي وتلك الأرض جسم واحد. تُقْتُ إلى الانحناء على يديه، والسجود أمامه، أمرّغ شفتيّ بتلك العروق المنهكة في يديه، أؤكّد له حبّي، أبتهل إليه، إلى الأرض والسماء، ليحوِّلوا راجي عن طموحه.

طموح؟

يا لَهذه الكلمة الزائفة!

إنّها خيانة.

الخائن! لماذا خدعني؟ أجل، كدت أفضح مشاعري أمام أبيه. ولكنّه لا يستحقّ. لا...»

وتحوّل انفعالها إلى قهقهات مجنونة. ثم ضغطت يدي، وقد تجمّعت قواها في أطراف أناملها، وجمدت في مؤقيها دمعتان.

كدنا ننسى كلّ شيء ونحن نرشف القهوة المطيّبة بنكهة الهال، ونجلس على الديوان المريح في بيتنا. ولم تسألنا أمّي عن سبب تأخّرنا في العودة إلى البيت بعد القدّاس. كانت تخشى لسان زائرتها.

أمّ سليم صاحبة لسان دافئ، ولكنْ عندها شابّ برسم الزواج. وهكذا، كان عليّ أن أكون مهذّبة مع هذه المرأة ومثيلاتها.

وكنت أصطنع التهذيب ما أمكنني، إرضاءً لنزعة الكبرياء في صدر أمي.

وبقيت أمّ سليم تلاحقنا بنظراتها الفاحصة كأنّها تقوم بمقارنة بيني وبين مِرسال، لتخرج منها بنتيجة حتميّة.

من تكون عروس سليم؟

وكنّا، نحن، نعرف ذلك، ونخفي موجات من الابتسام الخبيث، ونحن نردّ على دفق أسئلتها:

«تعلّمت منى الطبخ يا أمّ سمير؟ مين بيطبخ أحسن، أنتِ يمّا مِرسال؟ رتي الكلسات ضروريّ لكلّ بنت... والخياطة... ويا أمّ سمير، ليش ما بتعلّمي منى العجين والخبز؟»

وبقيت أمّي تجيب عن كلّ سؤال من أسئلتها باحترام، معترفة لها بهذا الاهتمام الجدير بالتقدير.

وكنت أعلم أنّ أمّي لا تطمح كثيرًا إلى التقرّب من أمّ سليم، إنّما كانت تُبقيها في حسابها، إذ لم يكن هناك أفضل منها.

بقينا بعضًا من ساعة نشارك في الحديث، ونصغي بشغف إلى حديث أمّ سليم عن المرشَّحين للزواج في هذا الفصل. وكانت لا تدّخر جهدًا في مدح صفات سليم من حين إلى آخر، ومعاملته الطيّبة لها. وأخيرًا جمعت خلاصة أفكارها في عبارة الوداع: «ابقوا شرّفونا، يا أمّ سمير، وخذوا منى معكم...»

ودّعتُ مِرسال عند الباب، وعدتُ إلى المنزل، تلاحقني أصداء حديثها، وقد انطبعت صورة انفعالاتها في خاطري، وراحت تعكّر صفاء أفكاري.

لماذا تمتدّ الأفكار والأحاسيس عبْر واقعها، فلا تنتهي في مكان حدوثها وزمانه؟

لماذا يحمل الإنسان هذا الكابوس على ظهره، ويروح يقطع السبل الوعرة، يسبح في عَرَق الإرهاق، في بخار الكلل، ويمشي؟

لماذا؟

ألصقتُ وجهي باللوح الزجاجيّ. عانقت النافذة في غرفتي. وبقيت أحدّق إلى البساتين البعيدة، والكروم المترامية عبر آفاق القرية.

كانت الشمس تسطع مرحة، تلوّن المروج، وتمسح رؤوس الأشجار، فتزداد نضارة غابات الصنوبر، وتزهو الأوراق الصفراء المتشرنة في كروم التين والعنب. وكنت ألمح يد راجي تمتدّ صوب الكروم، وتهوي على تلك الأشجار بفأس حادّة، تقطع رؤوسها، تخنق فيها جذوة الحياة، وتتوارى بعيدًا... ثمّ تعود إلى المباني التي يقطنها الناس في القرية، فتحمل معولًا وتروح تهدم.

لاحت منّي التفاتة إلى الخرب المجاورة لبيتنا.

خرب! هذا ما تبقّى من منازلهم.

وظلّ الاسم في ذهني حجرًا أصمّ، يقف عند منعطف حياتي...

خرب!

ثم عدت أرى راجي... طموح راجي يقهقه فوق تلك الخرب، يدوس حجارتها المنهارة، ينقضّ على القناطر الساذجة.

أكانت تلك الخرب تؤوي أزواجًا وأطفالًا في زمانٍ مضى؟

كم ولادة شهدت؟ كم حكاية حبّ غزلت في الليالي الراضية؟

وها هي، أخيرًا، تنهار وتصبح مأوى للبوم والخفّاش.

الخرب هي الصوت المندحر، المهزوم، في قريتنا.

إنّها الإنسان المغلوب على أمره في صراع العيش، ضمن ذلك الإطار الضيّق، بين ذرّات التراب المحترق، يدفعه الضيق ليشقّ سبله إلى العلاء، ليرفَّ بجناحيه، ويرتفع بحثًا عن الأنفاس الطليقة والنشوة المظفّرة.

ترى، هل عرف راجي تلك النشوة؟

كان يسير على خطاهم، متابعًا سرد الأسطورة العتيقة في القرية.

انتزعني من تأمّلاتي صوتُ أبي فوق السقيفة: «تفضّلوا يا شباب، تفضّلوا اشربوا فنجان قهوة...»

وكان راجي أحد هؤلاء الشباب.

عشرات منهم يروحون ويجيئون، كلّ يوم، على الدروب الفارغة، بين المساكن الحجريّة الضيّقة. وتنتهي الرحلة عند حدود القرية.

ويعيدون الكرّة كلّ يوم، كلّ ساعة. إنّ الساعات تتزحلق قاتمة، حائرة. بينما حبال مختلفة الأحجام والألوان تشدّ سيقانهم وأناملهم وشعر رؤوسهم... تسمّرها إلى الممرّات الصغيرة والأزقّة الضيّقة.

وراجي تجرّأ على قطع الحبال وممارسة التحليق.

أطلّ بقامته الفارعة، وقد سبقته عيناه. نور غريب كان ينبعث من وجهه، هو النور الذي أضاء السبيل أمام مِرسال. هكذا فكّرت.

كان يرتدي بذلة جديدة تلفّ قامته بأناقة غريبة عن جوّ القرية، وقد ثارت خصلة من شعره الفاحم الكثّ على الجبين العريض، تسطّر تحدّيًا لاواعيًا.

حيّاني ببسمة مشرقة، سلّطت على وجهه ضوءًا ساحرًا، فبدا كلوحة فنّيّة جادت بصنعها يد فنّان قدير، وجعلت الانسجام عنصرها الأَساسيّ. وقفزت في خاطري كلمة مِرسال: «الخائن!»

لا، لم تكن في نظرات راجي وأحاديثه أمارات الخيانة. كنت أراه، في ذلك الصباح، بعين مِرسال المحبّة.

جلس الشباب يدخّنون، ويصغون إلى مغامرات أبي في الصيد. في هذا الوقت من كلّ عام، وقت الغرس، تكثر طيور السمّن في الحقول المجاورة،

بدلًا من طيور أيلول.

إنّها طيور صغيرة الحجم، دكناء اللون، تهرب مذعورة من الصقيع لتحتمي بأشجار الزيتون، وتلتقط ما بقي من الحبَّات الدسمة، أو تلاحق الفلّاحين بين حقول القمح، وتقتات بما يطيش على سطح الأرض من حبوب.

كان هاني، شقيق نجلا، أشدّ الجميع حماسة. وظلّ طوال الوقت يتحدّث عن بندقيّته الجديدة، أو العروس كمّا يسمّون البندقية في مثل هذه الجلسات.

وظلَّ راجي صامتًا. وكأنّي لمحت ارتعاشًا يسيطر على شفتيه، وحول فمه. وبدا في عينيه بعض شرود.

وأنقذه من شروده سؤالُ أبي: «شو؟ دبّرت الناولون يا راجي؟ رَاح نستفقدلك كتير، يا ابني، الله يوفّقك.»

وقال هاني: «ابقَ اذكرنا في ملكوتك يا راجي... ما تنسانا.»

وكان سليم يستمع لتطوّر الأحاديث بصمت. ولمحته يتأهّب ليقول شيئًا، ثمّ عدل، وعاد يغرق في عزلته الدائمة.

لا أذكر أنّي سمعت سليمًا يعبّر مرّة واحدة عن رأيه. وحتّى الآن لا أكاد أعرفه، إلّا من خلال أحاديث العجوز أمّ سليم.

وعاد يشغل اللحظات التائهة: «والله يا شيخ حرام تترك أبوك. دخلك يا راجي، مش عاجبتك هالرزقة الواسعة؟».

لا. الأرزاق الواسعة لم تعد تعجب راجي، لم تعد تكفي جيل راجي، الجيل الذي أطلّ من نافذة القرية على حياة المدينة، على ترف العصر، وعاد يتراجع إلى واقعه. فإذا الأرض تشرق بخيراتها، وتختنق في نار جدبها، وإذا ضروع الكرمة تجفّ، وإن هي أعطت، فالعطاء الشحيح لا يشفي الغصص المحشرجة في صدور يدقّها الطموح في كلّ لحظة.

وعدت أسمع راجي يدافع عن نفسه، عن جيله:

«أجل، لم تعد الأرض تكفيني، أحببت أبي، وأرضي. يا ليتني أقوى على سلك الدرب الذي أعدّه لي أبي.

ماذا نفعل نحن هنا؟

الأرض؟ هذه الأرض نقطة منسيّة في دنيا الوجود. من يعرف شيئًا عنّا، عن أرضنا؟ من ذاق طعم الملح في العرق المتصبّب من وجوهنا؟

من يحترق، كلّ يوم، عشرات المرّات، تحت لسع السياط اللاهبة؟

من يموت، في الصقيع، ألف ميتة، ويدفن أطراف أنامله في الثلوج لتدفأ، أو يضربها بعصا السنديان، ويشقّقها بالسكّين، لتعود الدماء تسري في شرايينها؟

تجلسون هنا، تسمرون لحظة قصيرة، تعدّها لكم الحياة، لترتاحوا وتستعيدوا أنفاسكم، ثمّ تعودون إلى الأرض، وتمزجون دماءكم بشرايينها، وتدقّون أبوابها بألواح صدوركم، وفي النهاية، تخرجون وفي قبضتكم بقيّة رماد.

تدقّون صدر الأرض، كلّ يوم، وتموتون على وجهها ألف مرّة قبل أن تفتح أبوابها لتُعيدكم إِليها.

ومن يهتمّ؟ من يعيركم التفاتة؟

الدولة التي تجمع الضرائب عن بيادركم، في كلّ عام، ماذا فعلت لتزيد غلّات أرضكم؟

ماذا فعلت لكم؟

هل سكبت قطرة ماء في حلوقكم اليابسة؟ هل فكّرت في إطفاء النار الملتهبة بين ذرّات التراب؟

أنتم تحملون غلّاتكم، على ظهوركم، في نهاية الموسم، وتقفون على السطوح، تنادون عليها. وتُبحّ حناجركم، وتختنق أصواتكم، وتتعفّن الغلّات وتسوّس بين أيديكم.

بالأمس مات أبو منصور... تعلمون كيف مات؟ في الثمانين من عمره، كان يحمل معوله، كلّ يوم، ويغدو إلى الحقل. وبينما كان يرفع المعول ليقلع بعض الصخور، وقع المعول من يده وانهار جسده فوقه، و... مات.

كان أبو منصور وحده في الكرم، ولم يعرف أحد بوفاته حتّى كان صباح اليوم التالي. اكتشفه معّاز كان يمرّ من هناك مصادفة.

لا، لن أعيش كما عاش أبي، ولن أموت مثل أبو منصور...

لم يبدُ الدفاع قويًّا كما أراده راجي. فقد كان غده غامضًا، ولا يعرف لون الحياة التي يخبّئها له المستقبل وراء الآفاق البعيدة.»

كان يستمدّ كلامه من واقعه الحائر المشتّت، واقع خلّفهُ ضيقٌ خانق بين دفّتيْ كتاب محدود، وكلمات فاه بها معلّم غريب، ووجه أنثى، حاذقة، تعرّف إليها في رحلاته القليلة إلى المدينة.

كان حبّه لمِرسال شبيهًا بحبّه للإرض: حبًّا فطريًّا ساذجًا، لا يصمد أمام عواصف الطموح، ولا يغذّي نزعات كثيرة كانت تدقّ حواسه وأفكاره في كلّ لحظة من لحظات حياته.

كان حبّه لمِرسال النوع العاديّ من الحبّ الذي عجز عن دفعه في الشعاب الوعرة، يقلع شوكه بيديه، ويتعثّر في سبل غريبة، أو يتسلّق الجبال الشامخة القمم.

تلك الأفكار غرستها أمّه في رأسه منذ أن فتح عينيه على الحياة.

كانت أمّ راجي امرأة متوسّطة الجمال والذكاء، وكانت تخاف كثيرًا على مستقبل وحيدها في القرية: «الضيعة ما بتصلح لأمثال راجي... ما بدّي ابني يدفن حياته هون، مثلي أنا...»

كانت تردد أقوالها بلسان ما زال يحتفظ بلكنته الغريبة، فقد عرفت هي حياة المدينة في مطلع حياتها.

هاجر والداها إلى أميركا، وعادا ببعض مال وضعه الوالد في دكّان صغير يحتوي كلّ ما تطلبه الحياة في القرية. وكبرت الفتاة، وبقيت ذكريات الاغتراب تطوف في بالها، وقد زادتها حياة الحرمان، في القرية، بهاء ورونقًا.

وعاشت هذه الذكريات في كلّ لحظة من لحظات عمرها، بل كانت الحاجز الذي أبعدها عن مشاركة زوجها في حياته وأفكاره.

«لا تأخذ راجي معك اليوم إلى الحقل، فقد تعب مبارح كفاية. اتركه يدرس شويّة.»

ثمّ تهمس في أذن الصغير: «الحياة في أميركا غير هون، يا إبني. بدّي ياك تسافر حتّى تبعد عن قساوة العيش...»

وكان الذي يتأمّل في عينيْ أمّ راجي يلحظ خيبة مريرة تجول في ماء العينين، وبقايا طموح مندحر يجثم بين غضون الوجه.

ولم يُعرف عن أمّ راجي أنّها كانت تخضع لزوجها، وهو الخضوع الطبيعيّ عند نساء القرية.

وكانت تقلّل من قدره على مسمع الأغراب، وتخالفه في أمور كثيرة، ولا تتورّع عن تأنيبه إذا اقتضى الأمر.

وكانت حنّة تذكر هذه الأمور في جلساتها المألوفة، وتشفع كلامها بعبارات الشفقة على أبو راجي، الرجل الذي يحبّ الجميع، ولا يؤذي النملة إن وطئها بقدمه: «ياما في ناس مظلومين بهالكون! وبو راجي واحد منهم...».

هذه واحدة من العبارات التي لا أزال أذكرها عن حنّة. وحين خُتمت حياة أمّ راجي إثر نوبة في القلب، قالت حنّة بشيء من الراحة: «يا الله! ارتاح بو راجي».

نهكني التعب، وكدّني العناء، وأنا أبحث عنهم في كلّ لحظات يومي...

بالأمس، سرت بين الناس، في شوارع المدينة، وقد مات في قدميّ التحفّز والنشاط.

كان الناس يحدّقون إلى نظراتي المكدودة، وإلى تساؤل متهالك فوق شفتيّ، كأنّهم يتساءلون عن سرّ تيهي في هذا المحيط الهائج.

وظلّ الناس يركضون في الشوارع الضيّقة، يقيسون أجسادهم الصغيرة بالمباني العملاقة، والمطر يرشق الأَرض بغضب وعنف.

بدت المدينة كالحوت الجائع، يفتح فمه ويُغلقه. وبين الفتح والإغلاق، يدخل الناس ويخرجون، وقد علت وجوههم أمارات الذعر.

وظلّت الوجوه المتقلّصة تتسابق في مرآة نفسي، تهيم باحثة عن جواب لتساؤلها.

وكنت ألمح، من حين إلى آخر، أشلاء من بقاياهم، وقد غارت تحت قناع كثيف.

وصفعتني عبارة مفاجئة: «راحوا، لن تجديهم بعد اليوم...»

كان وجودهم رهن تلك اللحظات التي انطفأت في مواقد النار، في الغرف المظلمة، في بيوت القرية.

ويبقى القلم يسير. أسمع صريره، الآن، وهو يسجّل ذكرياتهم، والصور الحلوة الهاربة بين المنحدرين هناك، عند فتحة الوادي.

وأذكر، والوحدة تنهش قلبي، العهدَ الذي قطعته على نفسي لهذا القلم، يوم لوّحتُ بالمنديل لقريتنا الحبيبة، وانحنيت أقبّل تربتها مودعةً.

كانت العاصفة مزمجرة تلك الليلة. واحتضننا الموقد الدافئ كأنّنا جماعة من اللاجئين هربت تحتمي من حرب مدمّرة.

إنّ للطبيعة سلطانها البدئِيّ هناك.

الناس يضحكون مع الشمس، ويرتعدون مع الرعد، وتذوب أجسادهم في عواصف الغبار، ويمسحون قلوبهم بنقاوة الثلوج.

كان أبي ينتظر ضيوفه في تلك الليلة، وقد نفد صبره، فللزيارات نكهة خاصّة في الليالي العاصفة. إنّ عنف الطبيعة يفرك نفوس الناس ويجمعها، فتلتحم كأنّها تنشد الأمن مجتمعة، لتجبه العناصر الخارجيّة الطارئة.

شرَّعت الباب، وخرجت إلى العاصفة، أتلّقى قبلات الثلوج وهي تتهالك بصمت على الأشجار والسطوح وفي الأزقّة.

بدت الأَرض، في تلك اللحظة، صفحة من ضياء، تنعكس على الضباب المتمرّد في قرص الفضاء.

كنت أدعو الصقيع لينفذ إلى مسامّ جسدي، إلى الزوايا الدافئة من صدري... أدعوه ليسطّرني رقعة من رقاعه البيضاء الساذجة. وارتفع صوت أبي محتجًّا، فقد نفذت العاصفة إلى الحجرة تطرد دفئًا حصرناه طوال النهار: «في مَن تفكّرين يا منى؟ أراك ساهمة، شاردة، فلماذا؟ أفي بالك أَحدهم؟».

تبسّمت لأمسح الشكّ من ذهن أبي، وأحكمت إغلاق الباب، ثمّ جلست أقلّب صفحات كتاب.

وعاد صوت أبي: «ماذا تقرإِين؟ أتكشفين بختك؟ أتبحثين عن الغد بين ثنايا الكتاب؟».

– أجل، يا أبي! كنت أبحث عن الغد.

بحثت عنه، دائمًا، بقلق وحيرة. وكان ذلك دافعي لأخرج إلى العاصفة، لعلّها ترفعني في ذروة عنفها، وتحلّق بي إلى البعيد.

قالت جدّتي، وأنا أسرد لها أحد أحلامي الغريبة: «لا تخافي، يا بنتي... مش كلّ الأحلام بتتحقّق...»

واقتربتُ منها ذات صبيحة، أروي لها حلمًا غريبًا: «كنت واقفة قرب نهر، أتأمّل مياهه الدافئة، والمروج المنبسطة على ضفّتيه، وأعيش لحظات نشوة لا يعرفُها الواقع. وفجأة نبت لي جناحان، فرحت أطير وأعلو، والنشوة العارمة

ترتفع في صدري. ثمّ إذا بي أهوي إلى عالم اليقظة... فتحت عينيّ وقد زال الحلم، وبقيت آثاره في خفقات قلبي...»

ربّتت جدّتي كتفي بيدها الدافئة: «الأحلام ما بتعني شي... لا تخافي يا بنتي.»

تكرّر الحلم في الواقع، وأنا أقف فوق المصطبة، مثبّتة قدميّ في الصفحة البيضاء كعبارة خطّها القدر في ذلك المكان البعيد.

كان السؤال مفاجأة لأبي قبلي. لاحظت ذلك في صمته، واجتنابه التحديق إلى وجهي وأنا مكوّمة كالفاصلة، أحول بينه وبين أفكاري.

اقتربت من الموقد، وطردت قطّتنا السوداء، لأَحتلّ مكانها في الزاوية الدافئة. وقفزت القطّة تؤدّي دورها في المسرحيّة، وتتلوّى بغنج في حضني، تبثّ فيه أنفاسًا مستكينة ناعمة.

كانت تلك اللحظة الوحيدة التي جمعتني بأبي. ثمّ ابتعد كثيرًا. عاد إلى نظريّاته وقوانينه وفلسفته في «المجتمع والتربية وعلاقة الفتاة بالشابّ»، ودور كلّ منهما في الحياة.

وددت لو أستغلّ تلك اللحظة لأطرح عليه أسئلة كثيرة: أتخشى هذا «الأحدهم» يا أبي؟

ومن أكون في نظرك؟ من أنا؟ امرأة، عالة، مصيبة، لعنة الضعف؟

كنت أعرف أنّك تحبّني كثيرًا كثيرًا... ثمّ ماذا؟

أسئلة، وأسئلة، كانت تقضّ مضجعي، وأتمنّى لو أخرجها، فيمنعني خجل الطفولة، وأتوارى وراء قناع وهميّ، وأبقى أعيش في القلق، في دوّامة من الحيرة والهروب.

لم يسمح لي الضيوف بسؤال واحد من هذه الأسئلة كلّها.

سمعت وطء أقدامهم في فناء الدار، ثم على عتبة الباب. كانت تسبقهم نغمات متقطّعة، وآهات تأفّف من العاصفة. وتلت ذلك كلّه استكانة في ظلّ الأحاديث المتنافرة، والفكاهات الخشنة.

وكانت أمّي قد استعدّت لهذه الزيارة طوال النهار، فأعدّت الحلوى اللذيذة، والفاكهة المجفّفة، والقهوة المطيّبة: الوسائل الوحيدة المسلّية في سهرات القرية.

كانت تلك أوّل زيارة يقوم بها «سايمون» مع عروسه لعائلتنا.

قبل أن يغادر القرية، كان اسمه سمعان. لقد عرفته الحقول، والكروم، وأعالي التلال... وصورته هذه يذكرها الذين شاطروه الحياة في تلك اللحظات الزمنيّة.

كان في السابعة عشرة من العمر، مفتول العضلات، بهيّ الطلعة، يجيد غناء «الميجنا» والنفخ في الشبّابة.

وكانت أصداء شبّابته ترجّعها منعطفات الوادي، وهو متربّع فوق صخرة أزليّة، يرعى القطيع، ويحلم بالغد.

وكان سمعان يخدم القدّاس أيّام الآحاد، ويحيا بساطة العيش، ولا يحلم أنّه قد يسافر، ويصبح من أثرياء المهجر.

أمّا سايمون الذي زارنا، تلك الليلة، فلم يكن يحتفظ بصفة من الصفات التي علقت بذاكرتي منه. كان يطلّ على العقد الخامس من العمر، وقد تهدّلت عضلات وجهه، وغارت عيناه في حُفر عشّش فيها الهمّ والعناء، وبدت السمنة واضحة في أصابع يديه وكرشه المرفّهة وحركاته البطيئة الناعسة... لم ترحم السنون شعره، فمسحته بنقاب باهت، ومحت جزءًا من معالمه.

سايمون كان ذائع الصيت في عالم المال، وقد سبقته الرواية، عبر المحيط، إلى الدار الصغيرة التي احتضنته طفلًا حدثًا نكرة.

حين سافر سمعان خلَّف وراءَه أبًا وأمًّا كانا قد قطعا مرحلة من العمر. ثم داهم الموت الوالد. وبقيت الأرملة تعيش على بقايا حلم، تشدّها إليه رسائل مقتضبة من هنالك، تتلقّاها الأمّ بالعاطفة والدموع.

لطالما استدعتني أمّ سمعان لأَكتب لها رسالة:

«أمّك ستموت قريبًا يا بنيّ. فرّح قلبها، وتعال.»

«يا حبيبي، فتيات القرية بانتظار قدومك. اخترتُ لك عروسًا تعجبك.»

«يا بنيّ، أشمّ رائحتك في الرسالة، أخفيها في طيّات ثوبي، بين ثدييّ، فوق قلبي.»

«يا حبيب أمّك، يا سمعان، طالت الغيبة، والغربة قاسية يا ابني...»

اقتنع سمعان أخيرًا، وبعث ببرقية ينبئ فيها أمّه بموعد قدومه.

استعدّ الشباب للقائه. وخرجت القرية بالعجّز والأطفال لتستقبل ابنها بعد طول الغياب.

وكانت أمّ سمعان تتوكّأ على عكّازها وتقف بين الجماهير، وقد ردَّت الفرحة إليها رونق شبابها، فبدت أشدّ قوّة وحيويّة.

وحين أطلّت السيّارة الفخمة، فقدت المرأة اتّزانها. راحت ترقص وتزغرد وتبكي وتضحك. ونسيت العكّاز في ثورة حماستها، فانطلقت مفتوحة الذراعين، منبوشة الشعر، تستقبل وحيدها.

ولمّا احتوته ذراعاها، مات النور في عينيها، وعلت وجهها أمارات خيبة مزلزلة.

لم يلحظ أحد التحوّل الذي طرأ على الأمّ وهي تحدّق إلى الكهل البدين أمامها، محاولة أن تقنع نفسها بأنّه ابنها، بأنّه سمعان، إبن السبع عشرة سنة، الذي ضمّها بعنف بين ساعديه القويّتين، وهو يطبع على وجنتيها قبلة الوداع.

قالت حنّة في صباح اليوم التالي: «سمعان ناوي يتزوّج. مدري مين؟»

وبعد يوم، مرّت بنا حنّة، وقد نفختها البشرى: «سمعان رَح يخطب ليلى بنت بو فرهود...».

لم تدم الخطبة أكثر من أيّام، ريثما يتمّ إعداد الجهاز.

«ليلى محظوظة. إجاها السعد على طبق من ذهب!...»

هذا ما ردّدته سعدى وهي تتربّع فوق المصطبة، وتحاول أن تجد الحظّ لبنتيها القبيحتين.

ونجلا قالت، وهي تمرّ بيدها على خُصَل شعرها الكستنائي: «ودخلك، شو الدنيا بالمال؟»

وأضافت أنجلينا: «يا بنتي، عجوز يدلّل، ولا شابّ يهين...»

وشباب القرية، الشباب التائهون بين الأزقّة الضيّقة في القرية، كانوا يتحدّثون طوال الأسبوع عن الحدث الجديد: «الدولارات، يا خيّي، وحدها بتحلّي

بهالأيّام. بياخدوا أحلى بنات الضيعة...».

– والله الحقّ مع راجي، ما في غير الهجرة...

وتلاشت أصداء الغيرة واللوم والخبث في العرس الرائع الذي أعدّه سايمون لعروسه.

لا أذكر كيف كانت ليلى قبل تلك اللحظات. وتعيش في بالي صورتها وهي واقفة في حلقة من صبايا القرية، تسمع الزغاريد منطلقة من الحناجر، وتحني رأسها، أو ترفعه وفقًا لطلبات الماشطة.

واقتربت حنّة تثبت وجودها في المناسبة، كما تفعل دائمًا: «لبّسوها الحلق والعقد والأساور كلّها. حطّي عقدين سوا. إنت عروس يا حبيبتي...»

واحتجّت نجلا بقولها: «وَيْن ذوقك يا سِتّ حنّة؟ الأفضل أن تبدّل كلّ عقد مع تبديل ثيابها. يا الله! الناس ناطرين العروس عالصمدة.»

وكنت أراقب الأنامل تتحرّك برشاقة، تزيّن العروس، كأنّها أصابع فولاذية تتحرّك في آلة عجيبة. كانت كلّ واحدة من النسوة تحاول أن تثبت براعتها في التجميل، وتُجري تجاربها في وجه ليلى وقدّها:

«الكحل قليل. الحمرة ما بتروح مع الفستان»،

«خلّي شعرها عالكتاف».

«وين العطر؟ رشّي، يا حنّة، ريحة طيبة!...»

بدا العرس كأنه يخصّ كلّ واحدة من الحاضرات، ما عدا العروس.

كانت ليلى في عالم غريب بعيد. رأيتها تائهة، عاجزة عن التفكير، وسط ذلك التيّار السريع الذي شدّها إلى نقطة واحدة.

ونقلت نظراتها المتوسّلة إليّ، فشعرت بأنّها تعي واقعها، وتعلم أنّها ضحّت، وضحّت بالكثير، لإنقاذ عائلتها من الفقر.

كلماتها انغرزت في قلبي، فعصرت نفسي عصرًا: «شو رأيك، يا منى، بالعريس؟ بتفكّري رَحْ كون سعيدة؟».

وبحثتُ حولي عن شيء أتمسّك به، أشدّ إليه جسمي وأنا أجيبها: «إذا شئت ذلك...».

ثمّ هربت منّي، وهي تمسح دمعة اغتصبت سبيلها إلى عينيها، وكادت أن تفسد القناع الملوّن الذي رسمته الصبايا فوق وجهها.

لماذا فعلتِ ذلك يا ليلى؟ ولمن؟

دخلتُ غرفة «الصمدة» حيث ارتفعت العروس فوق الحشايا والطراريح، وقد بدت كالحمامة في ثوب الزفاف، والنقاب الأبيض منسدل على وجهها وكتفيها.

وتذكّرتُ أسطورة قديمة عن التنّين الجائع وابنة الملك، الصبيَّة الحلوة.

وقعت القرعة على الأميرة الجميلة لتقف على الشاطئ، تنتظر مرور التنّين الذي يلتهم أجمل فتيات المدينة كلّ سنة.

وبقيت الصبيَّة تنتظر، وقد عقدت يديها فوق صدرها، وارتسمت على وجهها مسحة استسلام هادئ، وتهدّلت رموش عينيها في ذلّ الانكسار.

وبقيت مستسلمة، والتنّين يزحف نحوها، ويزحف... وتلفّتُّ حولي أبحث عن بطل ينقضّ على التنّين، وينتزع الصبيّة الحلوة من بين فكّيه، ويغرز حربته الحادّة في حلقه... ولكنّ هذا البطل، الذي تُعلّق صورته في صدر الكنيسة، لم يدخل الغرفة، وترك ليلى تنتظر التنّين.

وكأنّ ليلى شعرت بصرير أفكاري، فانهمرت دموعها، وبكت، وتلاقت نظراتنا. فهربت منها إلى ركن قصيّ كانت تجلس فيه مِرسال، تحاول أن تشارك في التصفيق والزغاريد.

كانت مِرسال تبحث عن مخدّر ينسيها الواقع، ويدمل الغصّة القاسية في صدرها. وفي تلك اللحظة، سمعت الزغاريد تنطلق من حنجرتها كأنّها استغاثة غريق يشرف على الهلاك بين أمواج المحيطات النائية. وبقي صوتها يتردّد بين الجدران الصامتة، بين حنايا صدري، ونحن نقف معًا، نودّع ليلى ونتأمّلها وهي ترفع يدها الراجفة لتتأبّط ذراع عريسها.

في صباح اليوم التالي، عادت القرية تحيا حياتها الطبيعيّة الهادئة. وتفَرّق الناس كلٌّ ينشد عمله.

وأمام غرفة نوم ضيّقة، حيث كانت ليلى تقضي الليلة الأولى مع عريسها، وقفت أمّها وقد رفعت بين يديها «القميص» الملوّث بالدماء، ورسمت فوق شفتيها ابتسامة الفخر: «تعالي يا أمّ سمعان... تعالي قبّلي كنّتك...»

لماذا تركت مِرسال أوراقها بين يديّ؟ لماذا؟

لقد خلعتها من وجودها كما تخلع أشجار الحور أوراقها الصفراء لتنهي مرحلة حاسمة من مراحل الزمن.

والزمن يمشي، ويتابع سيره، وأرى آثار أقدامه فوق هذه الصفحات الصفراء المتآكلة.

كان عليَّ أن أحتفظ بأوراقكِ يا مِرسال، أغلّفها بزجاج يحفظها كما تُحفظ نماذج الحيوانات في المختبر.

ولكنّي أمقت رائحة المختبرات. أمقتها... وأنت، لم تشائي ذلك.

وها أنا أذرّيها بين أناملي. أمرّغ بصري بصفحاتها. أخلد إليها في ساعات أسلخها من وحدتي، واتمنى لو أخلعها من درجي، أو أرمي بها في أشداق اللهيب.

ولكن، أيقوى الإنسان على اقتلاع شرايين الذاكرة؟

ويعود صوتك ينساب في مسمعي:

«أعصفي يا ريح الجنوب،
احمليني إلى حيث يقيم حبيبي.
ويا طيور أيلول، إلى أين تحملك الأجنحة؟
هل صادفتِ حبّي في رحلتك؟
وأنت أيّتها الأشرعة المسافرة،
ارفعيني فوق صواريك إلى بلاد نائية!»

عواطفك، يا مِرسال، أحلامك أثمن ما في وجودك، تترنّح منهوكة بين أناملي في هذه اللحظات.

ترى، كيف حقّقتِ الأحلام، يا مِرسال؟
لقد حملتك سفينة مهاجرة، وغارت صورتك في محيطات شاسعة.
ولكن هل وصلت إليه؟
وكتبت مِرسال أيضًا:

«أراه...
أرى حبيبي كإِله،
يسير في أرض ملكه،
أراه فوق ذرى حرمون،
في أنفاس الربيع وهي تمرّ على أزهار اللوز والتفاح،
في امتداد الأخضر فوق السهول،
في زهور الأقحوان.
حبّي في كلّ ذرّات وجودي.
وأسمعك، يا حبيبي،
في زغردات الطيور،
في همس السنونو،
في تبسّمات الشمس فوق أرضنا،
في هدير المياه بين منحدرات الوادي،
في كلّ وجودي...»

أوراقك الصفراء تنهار بين أناملي لاهثة، صريعة الزمن، ملهوفة إليك يا مِرسال.

إنّها تبحث عنك كما بحثتِ أنت عنه فوق الذرى وفي السهول.

ودرب العين، يا مِرسال، أتراها ما زالت تحنّ إلينا؟ أما زالت متعبة من دوس الأقدام، تبتلع أنفاسها وهي تصغي إلى وشوشات المساء؟

قالت مِرسال، في تلك العشيّة، ونحن نحمل الجرار، ونتّجه صوب عين الماء: «حدّد راجي موعد سفره... غدًا صباحًا سينزل إلى بيروت ليُنهي أوراقه.»

وصَمَتَتْ.

امتدّ صمتها على طول الطريق المزدحم بالناس والحيوانات. وشُغِلتُ عنها بتأمّل الوجوه، وإلقاء التحيّة، من حين إلى آخر، على الأَشخاص المسنّين.

وقفنا ننتظر دورنا في تعبئة الجرار، ونصغي إلى سنفونية المساء، حول ينبوع الحياة ذاك.

امرأة تهمس في أذن صديقة آخرَ فضيحة سمعتها.

وأخرى تستعجل تعبئة الجرّة لتلحق الطبخة قبل أن تحترق، أو لتعود إلى طفل تركته في السرير.

وحول الجرن الكبير، اصطفّتْ أبقار القرية وحميرها تتزوّد، هي أيضًا، بالقطرات المنعشة، يهيج ظمأَها صفيرُ الرعاة والفلّاحين، ويصدّها عن الشرب نَفْحُ الرياح الشماليّة.

ظلّت عينا مِرسال تجولان في صمت تائه، حتّى ارتفعت الجرّة فوق كتفها. وساعدتني امرأة في رفع جرّتي الثقيلة. وعدنا نجرجر أقدامنا تحت ثقل الحمل، ونجترّ أفكارًا لا يسمح لنا التعب بأن نبوح بها... وظلمة المساء تتغلغل بين المساكن والأزقّة، فتزيدها وحشة وضيقًا.

تركتني مِرسال عند مفرق الطريق المؤدّي إلى بيتها، وقد أخذت منّي وعدًا بأن أعود إلى قضاء السهرة عندها.

كنت أفضّل أن أبقى في فراشي، تلك الليلة الباردة، أو أقبع بجانب الموقد، وأتأمّل ألسنة اللهيب الزرقاء، الحمراء، تتراقص على أنقاض قرامي السنديان.

ولكنّ دعوة مِرسال أوقدت العزم في قدميّ، ورأيتني أندفع بخفّة إلى دارها.

استقبلتني أمّها في الباب باسمةً، وقادتني إلى حيث نصب «الوجاق» الجديد. فقد كان بيت مِرسال حديثًا بالنسبة إلى سائر المساكن. ولمّا وضع والدها التصميم الجديد للمنزل، ألغى الموقد والمدخنة، واستعاض عنهما بالأتّون المقفل الذي يوزّع الدفء بهديره، ويحفظ للجدران لونها الأبيض، فلا تصطبغ بالأسود اللمّاع الذي يكسو السقوف والجدران الخشبيّة في غرف الإشتاء.

بقي والد مِرسال منهمكًا يتصفّح جريدة قديمة. وانزوت أمّها تحوك كنزة من الصوف. وجلستُ قرب مِرسال نتسلّى بلعب الورق، ونمدّ أيدينا، بتردّد، إلى أطباق الضيافة، وقد امتلأت بالقضامة، والزبيب، والتين المجفّف.

لم أسمع صوت أبو شفيق في تلك الليلة سوى مرّتين: حين رحَّب بقدومي، وحين سلّم عليّ مودّعًا.

كان رجلًا هادئًا يفكّر أكثر ممّا يتكلّم. أمّا أمّ شفيق فكانت سيّدة يُحسب لها حساب في مجتمع القرية. كان لها وجه مليح، يكلّله تاج من الشعر الكستنائيّ، وقد ارتاحت في صفحته البيضاء عينا مِرسال الخضراوان... وكنت دائمًا ألاحظ نقابًا من الهمّ الصامت يغلّف الوجه الجميل، وهو همٌّ خلّفه في صدرها هجرُ بكرها، «شفيق»، قبل أن يبلغ مرحلة الشباب.

مضت عشر سنوات على غياب شفيق. هكذا شاءت عمّته في أميركا! كانت أرملة ثريّة، وليس لها اولاد، فكتبت لهم تقول: «أنا مستعدّة لأن أتحمّل نفقات السفر كلّها. لا تقتلوا مستقبل الصبيّ. ابعثوه إليّ. هنا سوف يتعلّم. وحين يُنهي اختصاصه يعود إلى البلاد...»

وبعد ذلك، بعث شفيق برسالة أكّد فيها لوالديه أنه عازم على البقاء: «علمي يخدمني هنا يا أبي. لا أدري ماذا أفعل حين أرجع إلى القرية. ولكن، سوف أزوركم، يا أمي، في مطلع كل صيف، إن شاء الله...»

لم يبدُ التأفّف يومًا على أمّ شفيق. بقيت محافظة على هدوء أعصابها، ولم تتخلّ قطّ عن أناقتها. وظلّ الرونق الفتيّ في العينين يغلّفه ستار الحزن الناعم.

ومِرسال لم تكن تُخفي عن أمّها سرًّا، وظلّت تتّفق معها على إبقاء أمورها الخاصّة في معزل عن الأب...

ولمّا ودّعتني أمّ شفيق في تلك الليلة، عند باب بيتها، ضغطت يدي بحرارة وهي تردّد: «مِرسال أختك يا منى. لا تتركيها. إنّها تقدّر نصائحك...»

نهضت القرية باكرًا في ذلك الصباح، وزحفت بشيبها وأطفالها إلى ساحة «الهجرة».

لا أحد يذكر متى استحقّت الساحة هذه التسمية، ومن خلع عليها هذا اللقب الملائم.

منذ عشرات السنين والساحة تستقبل أفواج المودّعين، تفتح لهم صدرها بصمت، وتسمع التنهّدات والآهات، وتشرب ماء العيون...

تأخّر راجي قليلًا، وبقيت الأَنظار معلّقة بمطلّ الساحة. كان عليه أن يمرّ لوداع المرضى والعاجزين، أولئك الذين أقعدهم الوهن عن المسير إلى الساحة. وحين أطلّ، يمسك والده بساعده الأَيمن، ارتفعت إليه الأبصار، وسمعت شهقات كثيرة تختنق في صدور النساء.

«سلّم عليهن يا راجي...»

«قل لأبو ديب يذكرنا. ما عاد كتب من زمان...»

«الله يكون معك يا ابني. كون قدّ حالك في الغربة...»

«الغربة للرجال. شدّ حيلك. ادعُ له يا أبو راجي. صلِّ حتّى الله يوفّقو...»

بقيت أدعيتهم تتصاعد في الهواء، وراجي يتنقّل بين أكفّ المودّعين، ينحني فوق يد راجفة على عكّاز، ويرتمي بين السواعد الشغوفة، ويرضخ صاغرًا لقبلات النساء، المسنّات منهنّ بصورةٍ خاصّة، ويمدّ يده، من حين إلى آخر، يمسح بقايا دمعة علقت بخدّه.

وجاء دور الصبايا، فمرّ بهنّ مسرعًا، وبقيت العيون الفتيّة تلاحقه، متأوّهة، وجلة... والشباب، كانوا يحدّقون إلى وجهه بنظرات يشوبها بعض غيرة.

لقد حقّق راجي أحلامًا يحيون فيها كلّ يوم. ولم ينسَ أن يودّع الأَطفالَ الذين تجمّعوا فوق أكوام الحجارة، يراقبون المسرحيّة بتهيّب صامت.

وأخيرًا اقترب من أبيه، وارتمى على صدره كالعصفور الهارب من العاصفة. وبقي وجه الوالد يرتعد فوق كتف الشابّ، ودموعه تحرق الأخاديد السمراء الخشنة، وأنامله تتلمّس الشعر والعينين والكتفين: «آه يا ولدي! ليتني متّ قبل هالساعة!...»

وصرخت حنّة من بعيد: «اتركه يا بو راجي. حرام عليك!...»

انسلخ راجي عن الصدر المرتعد، وهرب إلى العربة المنتظرة على جانب الطريق. وراحت الآلة الناريّة تلتهم الدرب البعيد. وظلّت يد راجي تلوّح بالمنديل الأَبيض، حتى غاب وراء التلال.

وبقي الأَب مسمّرًا إلى الأَرض، وقد رزحت قدماه تحت ثقل الهمّ، وغارتا في التراب الرطب. وظلّت دمعات متحجّرة تجول في مؤقيه، وقد سافرت عيناه، تقطعان المسافات البعيدة، وتحاولان اللحاق بالمهاجر.

لقد ترك أبو راجي وداع المرفإِ لأصدقاء راجي الشباب، ولكنّه أقسم على أن ينزل إلى المدينة يستقبله عندما يعود.

اقترب أبو الياس، ووضع يده على كتف الرجل، يحاول اقتلاعه من تلك اللحظات الموجعة، ثم سار معه يتقدّمان الموكب الذي بدأ يزحف بصمت في طريق العودة.

«هل صافحته يا منى؟ هل لامست أناملك يده القوية؟ هاتي يدك كي أقبّلها. دعيني أمرّغ عينيّ بعروقها، وأمسح عنها آثاره بشفتيّ. يكاد الصمت يقتلني يا منى. وأنت وحدك ملجئي...»

انتظرتُ مِرسال. وبقيت أعدّ اللحظات التي تحجبها وهي قابعة خلف غشاوة الأَلم تجلد نفسها بسياطِ العذاب وتختنق، تختنق بدموعها. وفي العشيّة أطلّت تسترق سبيلها إلى بيتنا وجلةً، حائرةً، كأنّها تسير هناك للمرّة الأولى في حياتها.

– أوحدك أنت يا منى؟

– ادخلي يا مِرسال.

وارتمت على الديوان، خائرة القوى: «كل ما بقي لي منه تلك النظرة الأخيرة، مسح بها دارنا، ونفذت، من خلال الزجاج، إلى قلبي.»

خشيت أن أنهار في الساحة أمام أعينهم. لم أنم طول الليل يا منى. كنت أسمع خطى بطيئة تزغرد في آذان الليل. خلته يطوف حول داري. ولم أجرؤ على أن أطلّ من النافذة لأؤكّد أنّي لست في حلم. كنت خائفة أن ينهار حلمي حين لا أراه... وبقيتْ الخطى تزحف في الليل، فوق أعصابي، فوق عينيّ، وتمسح عنهما الكرى. وفي الصباح، نفضت الغطاء، وارتديت أجمل ثيابي، ثمّ وقفت خلف النافذة المطلّة على الطريق.

كان يجب أن أراه وهو يبتعد، يسحب قدميه من دربي. ولم أحتمل فكرة وداعه هناك، بين الجموع، حيث يصبح ملكًا للجميع.

ظلّتِ اللحظات تزحف ثقيلة فتدوسني بعجلات من فولاذ، تسحق أعصابي. وحين رأيته يلتصق بأبيه خارت بقايا قوّتي، وتشبّثتُ بحديد النافذة وعيناي تخترقان الزجاج.

لم يَخِبْ ظنّي يا منى. كأنّه شعر بأنّي هناك، أقف خلف النافذة، أنتظره، فأدار بصره في التفاتة سريعة، فيها توسّل وعاطفة وألم، ثمّ راح يباعد خطواته كأنّه يهرب من الرصاص.

تكفيني منه تلك النظرة، فسوف تبقى تطحن عظامي، تعجنها، وتجدّد فيها العزيمة للبقاء.

وحين غيّبته الطريق، ارتميت على بلاط الغرفة، ورحتُ أضرب رأسي بالصلب الأصمّ، وأحاول أن أفتح فيه سبيلًا إلى الاطمئنان. وبقيتُ على البلاط البارد، أمرّغه بشفتيّ وأغسله بدموعي.

كانت تلك لحظات قاسية عنيفة. كانت قمّة في الجنون والأَلم. وعُمْري، لن أعود إلى تذوّقها...»

ألقمتُ النار خشبة جديدة، لعلّ اللهيب يمسح عاصفة الصقيع التي خيَّمت حول الموقد، ويعيد الدفء إلى مِرسال.

كانت أسنانها تصطكّ، وأناملها ترتجف، كأنّها سعت إلى البحث عن شيء تتعلّق به، ثم تردّدت فبقيت معلّقة، في الهواء، سؤالًا حائرًا على شفاه المجهول.

كانت الأيّام التالية قاتلة برتابتها. وظلّ التقويم، على جدار غرفتي، يتثاءب كلّ صباح عن يوم جديد... وفي كلّ يوم أرى يد جدّتي تمتدّ، ببطء وتردّد، لتمسح الأَيّام العابرة وتطرحها في النار، وتعدّ ما تبقّى من الشهر.

أحسّ الآن برعشة باردة تسري في أوصالي، وأنا أتذكّر ثقل تلك الأيّام وبطء سير الزمن.

لا أدري لماذا تتمهّل الأَيّام في سيرها بين منفرجات القرية!

وكان شتاء ذلك العام طويلًا عنيفًا، أمضيته وفي صدري شغفُ انتظار.

حتّى الآن لا أدري ماذا كنت أنتظر، وما هو الخيط السحريّ الغريب الذي كان يشدّني، عبر آفاقنا البعيدة، لأحلّق في المجهول، وأقطع ساعات يومي في التأمّل والأحلام.

ولم يبخل علينا الشتاء بأيّام ضاحكة، تزغرد فيها الشمس فوق جبال بيضاء، وتلال تتوّجها أشجار الصنوبر الأزليّة الخضرة.

حتّى الساعة، أعتقد أنّ اللون الأخضر في عيون أبناء قريتنا هو انعكاسٌ للأخضر المتموِّج فوق تلك التلال.

وفي أحد تلك الأيام الضاحكة، وقد أطلّت الشمس تعانق حقولنا بشوق، وتقبّل قطرات الماء المتلألئة فوق الحشائش، وتمسح جفون الأرض الرطبة، خرجتُ مع مِرسال ونجلا إلى الحقول القريبة من طاحونة الماء، لنجمع «السليق»، والأعشاب البرّيّة من خبّيزة وهندباء وكرّات.

أتوق الآن إلى تلك الانطلاقات الحرّة. أحسّ شوقًا يدقّ جدران صدري ويدعوني لأهرع من هذه الزاوية الضيّقة، بين أرجاء المدينة، إلى هناك، إلى حيث يقف الإنسان ويرفع يديه، فيحلّق مع الهواء، ويتطلّع السهول البعيدة، فلا

يلتطم نظره بجدار غلّفه الغبار، أو نظرات تتحدّاه وتحاول أن تعرّيه من ثيابه وتخترق عظامه بغلاظة وقسوة، نظرات تحوّم كالأشباح المخيفة في شوارع المدينة.

أذكر النشوة العارمة التي كانت تغمر نفسي إذ تقع عيناي على بساط «السليق»، فأنحني على الأرض في شبه سجود، وأغرز السكّين في الصلصال الرطب، في التربة الرخصة، أقتلع منها خيراتها، وأملأ بها سلّتي.

واختلج حنوّ غريب بين أضلعي في تلك اللحظات النادرة، حنوّ يشدّني إلى الأرض، فأندفع لأسجد فوق التراب، وأحسّ لهاث الأرض يغمر جسدي، وحصاها تغوص في ركبتيّ.

وأهيم، وأمضي في هيامي. وتجري اللحظات خفيفة، منعشة. ثمّ يعيدني من خلوتي مع الأرض صوتُ مِرسال، أو لحنٌ شعبيّ تدندن به نجلا.

شعرت بشيء من الغيرة وأنا أرى سلّتيهما تفوقان سلّتي امتلاءً.

كان ذلك ثمن تأمّلاتي وأحلامي!

واتّجهنا إلى نبع الطاحونة حيث الماء يتدفّق بسخاء ذوبًا من الثلوج المشرئبّة فوق الجبال القريبة، ويغور في شرايين الوادي، يشدّه سحر المجهول.

كنت أطرب لصوت الرحى، تدور وتدور، لتطحن الحبوب السمراء، ويجلجل هديرها بين منعطفات الوادي.

اقتربت من باب الطاحون لتمتصّ أذناي عربدة الصخب. كنت أرى في دوران الرحى قوّة الزمن الذي يبري كياننا، ويأكل رموش أعيننا، في كلّ لحظة من لحظات الوجود.

نسيتُ نجلا ومِرسال، وأنا أقف على سطح الطاحونة، أعبّ السحر من الأصوات المزمجرة، من أنفاس الربيع، من امتداد خيوط الدفء...

تركتهما عند ضفّة النهر تثرثران، وتغسلان الأعشاب. ولم تنسَ أنامل الطبيعة وجه مِرسال فمسحته بسحرها، وأطلقتها، إلى حين، من لحظات الكربة والهمّ.

اتّجهت عيناي إلى نجلا، وتذكّرت كلام حنّة في الليلة السابقة، وفكّرت: ماذا سيجري لها؟

إلى أين ستقودها الألسن الخبيثة؟ إلى أين ستصل نجلا بعد تزحلقها على لسان حنّة؟

لقد سمعتها تقول: «عرفتِ يا أنجلينا؟... عرفتِ شو قالوا؟...»

وكان صوتها الهامس، المبطّن بالغموض والسرّيّة، يؤكّد أنّ الذي يقال على جانب كبير من الأهمّيّة. وكلّ شيء يصبح مهمًّا بالنسبة إلى إنسان يقضي لحظات يومه يحصي أنفاس الآخرين.

وتابعت حنّة: «قال نجلا بتحبّ كمال، يا عيب الشوم!...»

لقد اكتشفوا أنّ كمالًا يحبّ نجلا، أو أنّ نجلا تحبُّه...

«الاكتشاف» أصدق كلمة للتعبير عن هذا الوضع.

إنّ الأمور الكبيرة، أو الصغيرة، في القرية، تبقى غامضة مجهولة، حتّى يقيّض لها أن تُكتشف على أيدي أناس مثل حنّة.

كان الجيران يتساءلون: لماذا يُكثر كمال من تردّده على الطريق الضيّقة، المجاورة لبيت نجلا؟ لماذا يجعل طريقه من هناك بلا سبب؟ أوَيجذبه السلك السحريّ الذي نصبته نجلا من نافذتها؟

وكانت هي تقف خلف النافذة لا تجرؤ على فتحها، وقد ألصقت وجهها بالخشب، وتركت عينيها تتسرّبان من الشقّ الضيّق إلى القدّ الزاحف في الزقاق.

أجل، كان كمال يزحف زحفًا صوب بيت نجلا. وكان يتمنّى لو يزحف على ركبتيه، أمام والدها، ليفوز بها، ولكن...

حاجز كثيف كان يقف بينهما، بلا رحمة، ويجعل الحديث في هذا الموضوع حِرمًا مُنزلًا، فقد كانت نجلا من مذهب يختلف عن مذهبه، وكان يعلم أن القتل ينتظره على أيدي الأشقّاء وأبناء العمّ إذا هو فتح فاه، أو عطس الموضوع في وجه أحد.

وهكذا بدأ الاكتشاف تكهّنًا على ألسن الجيران، وهم يطلّون من الشرفات والنوافذ، يقيسون خطى الشابّ النحيل الأَسمر وهي تنتقّل بحذر إلى حيث لا تدري.

«والله أشرف لها أن تموت!»

عاد صوت حنّة يدقّ أعصابي، وعاد فمها ينفتح وينغلق في خيالي، وأنا أراقب يديْ نجلا تفركان التراب عن ضلوع الأَعشاب البرّية، وتغوصان في العمق البارد بمرح اللامبالاة.

وردّت سعدى تتابع سلسلة الأحاديث: «بنات اليوم ما عادوا يتهدّوا. ما كنّا نتجرّأ نفتح سيرة الحبّ. بهالأيّام ما عاد حَدًا يستحي...»

وقالت أنجلينا: «عِش كتير بتسمع كتير!»

كانت الحلقة تعقد جلسة عاديّة على المصطبة، أمام منزل أنجلينا. وكان الحديث الهامس يزيد في غموض المساء وكآبته. وكنت أقف بعيدًا، أسمعهنّ وأتابع تبادل التعابير الملوّنة وتبدّلها فوق وجوههن، وقد تحوّلت إلى ما يشبه وجوه الكواسر حول جيفة مهملة.

سمعت في صوت حنّة تشفِّيًا يقرب من لحن السعادة. وسعدى كانت تصبّ نقمة جمعتها السنون في صدرها، وتحاول أن تسكبها في عبارة واحدة.

كانت سعدى أمًّا لبنتين حرمهما الله نعمة الجمال، وسكب في وجهيهما من القبح ما يحميهما من الرجال، مدى الحياة!

وكان لِنجاة، وهي كبرى الأختين، لسانٌ سليط ينسجم مع وجهها، ويتحدّى لسان أمّها. ولميا، الصغرى، كانت تعيش في ظلّ الأمّ والأخت، تجترّ كلامهما، وتعيد أقوالهما، وتعجب بغلاظة العبارات التي تنصبّ زاخرة عبر باب الدار، وتجرف في تيّارها الشهد والإبر.

كانت سعدى، إذا ما هاجها أمر وانفعلت بحديث، تسبل ضفيرتيها، وتشدّ العقدة الدائمة بين عينيها، تجمع فيها حقدها كلّه. ثمّ تفتح فمها، تقذف منه الحمم، ويبقى جسدها يرتعش ويضجّ في ثورة بدئيّة خشنة، من قمّة رأسها حتّى الشقوق القذرة في باطن قدميها.

سعدى كانت جارة نجلا، وكانت تمزّقها سهام الغيرة، وهي تتأمّل وجه نجلا العذب، وقوامها البديع، وحركاتها الرشيقة المرحة، وثيابها البسيطة الأَنيقة، وتقارن بينها وبين ما فات ابنتَيها نجاة ولميا من مواهب طبيعيّة.

ونجلا كانت وحيدة بين أربعة أشقّاء كبيرهم هاني. أعدّتها أمّها سلمى، منذ الطفولة لتعيش حياة وادعة، ساعدها في ذلك عملُ الوالد، وهو صاحب الدكّان الوحيد في القرية.

نجلا أوّل فتاة ضفّرت شعرها بالشريط الأحمر العريض، وأوّل من استدعت الماشطة إلى القرية.

وقوارير التجميل كانت تتكوّم فوق طاولتها الصغيرة، تثير حسد الرفيقات، وتدفع سعدى لتتحدّث عن المعجون العجيب الذي أحضرته ساحرة مجهولة لوجه نجلا.

«بنت بو هاني شو عا بالها! كلّ يوم فستان جديد، ما بقى تتهدّا».

هذا ما ردّدته سعدى ذات مرّة في حلقة أنجلينا.

وأجابتها حنّة يومها: «الله يستر عا بنات الناس!».

أعادني صوت مِرسال إلى الواقع. وخلتها تناديني من أودية بعيدة تعصف فيها رياح هوجاء. وركضت إلى الساقية، أغسل الأعشاب المكوّمة في سلّتي، وأغرق بقيّة تأمّلاتي في المياه.

أقسى شعور يواجه الواقع الانسانيّ، هو الوحدة، أن يحسّ المرء نفسه وحيدًا في هذا الكون.

وتزداد كثافة هذا الشعور إذا تصوّر الإنسان أنّ المخلوقات كلّها هجرت الأَرض، وبقي وحده فيها، لا يسمع حسًّا، ولا يقع بصره على غصن يرتعش.

هكذا كان أبو راجي في الأيّام التي تلت سفر وحيده.

لقد عاد إلى البيت المهجور فخلع حذاءه، ثمّ استلقى فوق الطرّاحة قرب الموقد البارد. وظلّ هناك طويلًا، حتّى طرق بابه أبو الياس، وتحدّاه لينازله في لعبة النرد.

لم تبدُ على أبو راجي الحماسة المعهودة فيه حين تذكّر هذه اللعبة. كان يطرح الحجارة من أصابع ماتت فيها العزيمة، ويحدّق إلى الأشياء كأنّه لا يراها.

كان ينتفض كلّ لحظة، ويوجّه بصره صوب الباب ليعود فيتابع اللعبة، وقد أطبق فمه تحت ثقل الخيبة.

عرف أبو راجي هذا الشعور، ذات مرّة، يوم توفّيت أمّ راجي.

أحسّ يومها ثقل الفراغ. نفحت البرودة قلبه، وجثم بلاط الهمِّ على صدره. ولكنّ الأيّام ظلّت تمسح بمرورها بعض الثقل، وتفرك آلام صدره، حتّى كاد يصدّق قول حنّة: «موت المَرا مثل لطمة الكوع...»

وكان راجي يملأ البيت بوهج طلعته وحرارة شبابه، وعادت الدار تمتلئ كلّ يوم بصحبه، يسمرون فيها ويضجّون، يعيشون أحلام الشباب.

ويعود الشيخ معهم، على جناح الذاكرة، إلى أيّام شبابه، فيبسم لأمور كثيرة كان يعدّها يومئذ على جانب كبير من الأهمّيّة، ثمّ جاءت الأيّام فكشفت له عن

تفاهتها. وها راجي يسير على الطريق يقوده النشاط الذي يعيش فيه الشباب ويتوق إليه الشيوخ.

وكانت تمرّ ببال الشيخ، في أحيان كثيرة، أحلامٌ لا يجرؤ على التوقّف عندها خشية ألّا تتحقّق.

كان يرى راجي يدخل باب الدار، يتأبّط ذراع عروس ترتدي ثوب الزفاف الأبيض النقيّ، ويتطلّع وجه أبيه بسعادة ورضى. ثمّ يقفز من مشهد العرس إلى حلقة يضجّ فيها الأطفال، أحفاده هو. ويرى واحدًا منهم يقفز إلى ظهره، ويداعب شعر شاربيه، أو يربّت صلعته بيده الطريئة، ويدغدغ وجنتيه، ويطلب منه أن يسرد له حكاية الجنّيّة الحسناء.

كان أبو راجي يصرف هذه الأحلام ببسمة حائرة، ثمّ يهرع لمتابعة أعماله، فيحمل المعول ويخرج إلى الحديقة، ينقّي تربتها، أو يهوي بالفأس على قرامي السنديان، يعدّها لقمةً لقمةً لموقد الشتاء.

أمّا الآن، وقد جلس أمام أبو الياس، يسمع دبيب الزمن ويلعق غبار الأيّام، فقد شعر بعجز كلّيّ عن شقّ السبيل إلى تلك الأحلام. وحاول أن يرسم وجه راجي، وهو يطلّ من الباب، كما كان يفعل في كلّ يوم، فخانته الذاكرة.

كانت أوضح صورة لوحيده، تجثم في خياله، صورةُ اليد التي لوّحت بالمنديل في تلك الصبيحة الباردة.

غلبته العاطفة، واغتصبت الدموع سبيلها إلى عينيه، ثم سالت قطرات منها بين ثنايا وجهه، وصفعت ظهر الطاولة المنبسطة أمامه.

«ولو يا رجل! شو قصّتك؟ كلّ شي إلو حدّ!...»

قال أبو الياس ذلك، وهو يصطنع الدعابة والمرح، ثمّ تابع: «الله كريم يا خيّي بو راجي. غمّض عين وفتّح عين بتمرّ الأيّام وبيرجع. مش معقول يتركك راجي. دخلك، إذا بعث ياخدك بتسافر؟...»

وهزّ أبو راجي رأسه: «والله ما بعرف يا بو الياس، ما عدت أعرف شي بها الدني...»

بعد ذلك، داوم أبو الياس على زيارة صديقه كلّ يوم.

كان الرجلان يجلسان قرب الموقد، يغرقان الوقت في ذكريات الشباب، أو يلعبان بالنرد والورق. وكانت النارجيلة لا تفارق أبو الياس في هذه الجلسات.

حتى إذا ملّا الجلوس خرجا يتمشّيان بين الأَزقّة الضيّقة. وكانا يختتمان الرحلة، كلّ يوم، في مركز البريد.

بات هذا المركز المحجّة التي يقصدها أبو راجي وعجائز القرية، يوميًّا، يقودهم إليها شعور لا واعٍ وشغف غريزيّ لتنسّم أخبار الغيّاب.

ظلّ أبو راجي يزور مركز البريد بعد ما وصلته برقية تحمل نبأ وصول راجي. وراحت الرسائل تتدفّق عليه حارّة مشتاقة. ثمّ مرّت الأيّام، وخفّ سيل الأَخبار.

«بسيطة يا بو راجي، بيجوز أشغال راجي ما بتسمحلوُ يكتب دايمًا...»

كان أبو الياس يغتنم كلّ لحظة ليخفّف من همّ صديقه. وظلّت الرسائل الشحيحة تزخر بالعاطفة والحنين إلى البلاد. بل هذا كلّ ما كانت تحمله الرسائل. لم يكتب راجي كثيرًا عن عمله وحياته الجديدة. وكانت الأسئلة تتراكم في خاطر الشيخ، وتختلج في صدره، ثم تسيل على الورق وتبقى بلا جواب.

ظلّ أبو راجي مثابرًا على زيارته مركزَ البريد والاشتراك في الحلقة اليوميّة التي تُعقد على السطيحة أيّام الصحو، وفي البهو المظلم، في داخل الدار، في الأيّام الباردة.

وكانت الأحاديث تنتقل من السياسة العالميّة كما تعرفها القرية، إلى طلائع الموسم الزراعيّ، إلى آخر الأَنباء المحلّيّة. ويبقى الوعي مفقودًا من الحلقة، فالناس فيها يشبهون المسافرين في محطّة القطار: الانتظار هو العنصر الذي يقرِّب ما بينهم، ويجمعهم، ويمهّد السبيل أمام الأَحاديث الملوّنة.

وكان كلّ واحد يشترك في الكلام بجزء من وعيه، ويبقى الكثير من ذلك الوعي في عينيه وأذنيه، ريثما يسمع صفّارة القطار، أو يرى ضباب دخانه.

وكانت هذه الصفّارة تتجسّد في وقعِ حوافر الحصان النشيط في الزقاق الضيّق، السابح في بحر الانتظار.

وتطلّ كوفيّة «البوسطجي» من البعيد كأنّها عَلَم من أعلام السلام في أحد الموانئ البعيدة.

وكثيرًا ما كان السلام ينقلب إلى حزن لاسع لاهب، حين تُفضّ الرسالة، وتُلفظ أنباء الموت: موت شقيق، أو أب، أو أخ، أو ابن...

وطاحونة الحياة تدور برحاها، ولا ترحم أولئك المهاجرين الذين سعوا على جناح طموح عاصف ليخرقوا المجهول ويبنوا فيه صروح غدهم.

ويرتفع صوت ثائر كالإعصار، سرعان ما يسري في شرايين القرية، بين الأزقّة المتعرّجة، ويصل إلى كلّ أذن، وتردّد صداه إِحداهنّ: «يا ويلنا من أخبار الغربة!».

تعيش حلقة الانتظار، بمركز البريد، في خاطري. وأكاد الآن أرى الناس، وقد علقت أبصارهم بالكيس الأَسمر المقفل، وحبسوا أنفاسهم خشية أن تتدخّل وتعكّر صفاء الأَحداث، وأطبق على وجودهم صمتٌ ثقيل، بينما أُرهفت الأسماع، وحلّقت الأبصار تلاحق يد الموظّف تمتدّ إلى الكيس، تسحب منه رسالة، ثمّ أُخرى... ويتلو ذلك قراءة الاسم. ثمّ تنفرط الحلقة، وينطلق أحدهم كالسهم ليتناول الرسالة وينصرف، أو ليوقّع على دفتر الرسائل المضمونة قبل أن يتسلّم «البوليصة».

وأبو راجي كان يتناول رسالته ويهرع إلى البيت ليفضّها، ويتمتّع بقراءة كلّ حرف من حروفها.

وعندما يخيّب ساعي البريد آماله، يحمل عكّازه، يستند إليه ويشقّ به سبيله إلى الدار الموحشة، وفي قدميه ضجّة السنين البعيدة.

كيف تموت اللحظات في المدينة؟

المدينة الجبارة تفتح سواعدها العملاقة، تضمّ اليها لحظات الزمن، وتصهرها في أتونها الملتهب بالشهوة؛ تصبغها كلها بلون واحد مستمدّ من ألوان المساكن الغبراء والسطوح القذرة.

هذه هي المدينة في لحظات انتصارها وأنانيتها، في لحظات قهقهاتها الهستيرية في الهيكل الإنساني.

وعلى الصفحة الغبراء، تمرّ الأَلوان فتخلع زهوها ومرحها وتجدّدها، وتمضي تطنّ برتابتها في آذان الزمن.

وتكرّ الفصول متشابهة. ويراها الناس، هنا، من خلال الكوى الضيّقة في الأَقبية الجاثمة على صدر التراب، من وراء مصنع يلهث البخار والعرق، من قلب مكتب فيه جدب الصحراء، وفي أنظارهم يتوإلى الصيف والربيع والشتاء والخريف. الفصول كلّها تنعكس في مرآة واحدة وتصبح وجهًا واحدًا يتكرّر أربع مرّات في العام.

وكلّما شقّق الربيع براعم اللوزة الصغيرة، قرب غرفتي، أنفذ ببصري إلى ما وراء الأفق البعيد، إلى حيث الربيع لا يزال يزور الأرض.

من قال إنّ غانيات المدينة أشدّ حرصًا على الإغراء من الأرض، من بساتين اللوز والتفّاح، وحقول القمح، وكروم العنب؟

في الربيع، حين تنفض العصافير الصغيرة قطرات المطر عن أجنحتها، وتهرع إلى الأشجار، تتغازل على أغصانها وتحبّ، تصاب الأرض بنوبة هستيريّة، وتخرق الغيرة عروقها، وتدفعها إلى البهرجة. والأرض تغالي ببهرجتها، تزيّن صدرها بعقود الأقحوان وشقائق النعمان، تمدّ سواعدها في تثنّي الأشجار

المزهرة، ويفيض الخير من أثدائها، يتدفّق سخيًّا من عروق فتحتها عواصف الشتاء في جسدها.

وتظلّ قُبَلُ المحراث فوق ثغرها، وقد شقّقته وتركت فيه خروقًا دامية.

ويشعّ الإغراء من كلّ مسامّ جسدها، ويطفر من نور سابح في عينيها، يدعو الناس إلى الحياة.

وفي ذلك الربيع، كان في تبرّجها نضج المرأة التي خبرت الحياة.

وظلّت أنفاس الربيع تتدفّق حارّة، تبخّر رطوبة خلّفها الشتاء، وتمسح آثار الصقيع عن عينَي الأرض.

وحرّك الدفء نشاطًا غريبًا في أجسام الشيوخ، فخرجوا يعقدون الجلسات على مقاعد حجريّة أمام المساكن وبين الأزقّة الضيّقة.

دفعتهم إلى الخروج القوّة الحيّة نفسها التي تدفع النمال إلى ثغر التراب، والنفاذ منه إلى نور الشمس.

وسرت الأنفاس الحارّة في شرايين الشباب، في خدودهم المورّدة، وعيونهم البريئة الساذجة.

وراح الفلّاحون والرعاة يمارسون أعمالهم بنشاط غريب، يلهب أعصابهم منظر الحيوانات تستجيب لنداء الربيع وتمارس الحبّ، فوق البسط المخضرّة، وتحت السماء الأنيقة الزرقة.

وخرجت الصبايا إلى الحقول، يتحدّين الأرض بمفاتنهنّ، باستدارة الصدور والأرداف، برشاقة القدود، بغنج الأنوثة المبطّن بالأثواب الطويلة الفضفاضة.

أكثر من حكاية حبّ نبتت في ذلك الربيع، وظلّت حكاية نجلا تفوقها جميعًا.

بقيت الحكاية تُروى وتزداد حلقاتها اتّساعًا مع مرور الأيّام، تمامًا كما تتّسع الحلقات في بركة الماء إثر سقوط جسم ثقيل فيها.

وفكّرت سعدى: إنّ الحالة لم تعد تُطاق، ومن واجبها، كجارة وأمّ بنات، أن تفاتح سلمى بالأمر وتخبرها بما يتناقله الناس من كلام على ابنتها نجلا.

وقبل أن تتحرّك، عقدت اجتماعًا مع حنّة: «أنا شفتها بعيني. كانت معه في الخربة. قرب بيتنا. يا أختي، سلمى لازم تعرف...»

وهزّت حنّة رأسها: «شافوهن كمان ببستان بو الياس. البنات ما بتنعطى حرّيّة!».

وقبل أن تقوم سعدى بزيارة جارتها، نفثت أخبارها في كلّ أذن، وبات الجميع يرون الوجه المعكوس للقصّة.

لا تذكر نجلا متى بدأ الحبّ يتفتح في صدرها، وكيف اختارها لتشارك كمال في حبك الرواية المفعمة بالعذوبة والشقاء.

أحبّته حين كان يزور الأسرة فيسمر مع إخوتها، ويسرد الطرائف والأخبار الشائقة، ويبادلها نظرات طافحة بالمحبّة والإعجاب.

أحسّت يومها أنّها أحبَّته دائمًا، ولم تحاول أن تتذكّر منذ متى.

وظلّ حبّهما يكبر بصمت، ولم يجرؤ أحدهما على تسميته أو البوح به.

اقتربت مرّة تقدّم له فنجان القهوة، وهي تصطنع اللامبالاة والعفويّة، وتموِّه مشاعرها ورعشة يديها بابتسامة سطحيّة. وظلّت تحدّق إلى الأرض، إلى السائل الأسود الحارّ، كيلا تصطدم بنظراته.

ورأت يده تمتدّ، وأنامله تحنو على الفنجان كأنّها تطوق خصرها أو تضغط ساعدها. وجمدت الأنامل حول حلقة الفنجان، فرفعت بصرها تسأل عن السبب، فرأته يحدّق إلى وجهها، وقد نسي فيه نفسه ومكانه وزمانه.

وأحسّت أنّ «الصينية» ستهوي من بين يديها، وأنّ شيئًا يتهدّم في صدرها كأنّه جدار ينهار. ثمّ تسارعت خفقات قلبها، فلم تعد تصدّق أنّها ستوصل الفناجين الحارّة إلى الضيوف.

«نجلا! كلمة واحدة، يا نجلا... وعلى انفراد، أرجو...»

سال صوته في أذنيها، هزّها ابتهاله، وهو واقف في الباب يودّعها، قبل أن يلحق بشقيقها...

«لا، يا...»

وغصّت باسمه، علقت الكلمة في حلقها، انغرزت في صدرها كالألم. فانقض بيديه القويّتين على يدها يكاد يسحقها، يصبُّ فيها كلّ معاناته. ثم غيّبته الظلمة. وبقيت هي واقفة في الباب، تبتلع جزعها وتهدهد اليد التي كوتها النيران.

عاش الحبّ حملًا ثقيلًا في صدر نجلا. كانت لا تجرؤ على البوح به لأحد. فقد أوقعها القدر في براثنه: في أبغض المحرّمات بمفهوم القرية.

إنّ كلّ حب ينتهي بزواج. ولكن، أيرضى أشقّاؤها بهذه الفضيحة؟ وأبوها، أبو هاني، كيف يتحمّل هذه الصدمة؟

ابنته تحبّ شابًّا من غير مذهبها!

وكلّما فتحت نجلا عينيها على صباح جديد، كانت تسأل نفسها: «لماذا؟ لماذا اختارنا القدر، يا كمال، لنذوق معًا هذه الآلام؟».

وكانت تقف أمام نافذتها الصغيرة، تتطلّع صوب بيته، فترى حاجبًا من القرميد والحجارة، وتلمحه، أحيانًا، يقف هناك، يحاول أن يخرق الحجارة الصلدة، أن يحطّمها في سبيل الوصول إليها.

وفي لحظات اليأس، كانت الحجارة تبدو مكشّرة عن أنياب السخرية، تقهقه، وتبقى قهقهاتها الهستيريّة تغور في عينيها وتحطّم أعصابها. فتنقضّ على النافذة تحكم إغلاقها كما تغلق عقلها، كيلا يبحث عن الحلّ الجديد.

وفي لحظات تأمّلها، كانت تحاول أن تجد هذا الحلّ، وتروح تبحث عن السبب الذي يحول دون زواجها بكمال.

لم يكن السبب منطقيًّا. كان أفكارًا جامدة متحجّرة، بقايا الأجيال الماضية، آثار حوافر الخيول الغريبة التي داست تربة القرية، سموم الرياح التي هبّت طوال السنين وعشّشت في رئات السكّان. وبقيت كالأسماك المتحجّرة التي يكشفها علم الجيولوجيا من حين إلى آخر في ثنايا تربتنا. لقد شاهدت مرّة إحدى تلك الأَسماك، وقلّبتها بين يديها. كانت سمكة حقيقيّة في أحد الأيّام، فلو قُدّر لها أن تتبع مجرى الطبيعة لانحلّت ذرّاتها الصغيرة وانتشرت في زوايا مجهولة من الأرض. غير أنّ العناصر المخالفة للطبيعة قويت عليها، وحجّرتها، وتركتها صلبة عنيدة، تخضع لسلطان واحد: التحطيم.

لا، نجلا لم تكن تقوى على تحطيم حصاة صغيرة. نجلا، الدمية الصغيرة الجميلة، ذات القوام الممشوق، والشعر الكستنائيّ المسترسل فوق الكتفين، والعينين الحالمتين، الغارقتين في بحر من الزيت والعسل...

ونفذت عبر أفكارها إلى حلّ آخر، وفكّرت في التحدّث إلى هاني. أخوها هاني من جيلها، ربّما يفهم أفكار الشباب، ويحسّ قوّة الحبّ.

أيفهم هاني؟

أيساعد؟

لا، لا، يا نجلا.

وتذكّرت هاني، ذات مرّة حين روت له قصّة حبّ قرأتها في كتاب.

لقد تحوّل أخوها المحبّ، ذو النظرات الحانية، إلى إنسان آخر، في نظراته قسوة أجيال بعيدة، وعلى شفتيه رعشات الرجولة المُهانة.

هاني سيكون أوّلَ من تُصاب رجولته بطيش المغامرة.

«لا، ليس هناك سبيل إلى لقائنا يا كمال!...»

هذا ما يجب أن تقوله حين تلقاه ثانية.

ولماذا تلقاه؟

سوف تنسحب كالطيف من درب حبيبها، من دون أن يحسّ أحدٌ بالأمر.

كانت الأفكار تحملها على متنها، وتعود بها من جولات كثيرة. وكلّما حاولت أن تفكّر في موضوع آخر، كان وجه كمال يطفو أمام عينيها، وتخرق عيناه السوداوان الذكيّتان عظامها.

«نجلا! لحظة، يا نجلا... أرجو...»

كانت نجلا، في تلك الأمسية، عائدة من زيارة صديقة، وكادت تطأ عتبة الدار حين تصدّى لها، ووقف في سبيلها كالصفعة، وأنساها الليل الزاحف ليطوّق المساكن الصغيرة، والعاصفة الهائجة بين بساتين العنب والزيتون.

وقبل أن تستعيد قوّتها الفكريّة، وتهرب منه، انقضّ على ساعدها، وجرّها إلى مخبأ في الخرب المجاورة.

«نجلا! لا تخافي يا نجلا. لستُ وحشًا مفترسًا. لماذا ترتعدين هكذا؟ أريد أن أتحدّث إليك. وهذه هي الوسيلة الفضلى...»

وخارت قواها، فارتمت فوق كومة من الحجارة غير عابئة بالماء وبقايا التراب.

وفي لحظة، لمعت أفكار كثيرة واضحة في رأسها، وشعرت بأنّها أضعف من أن تواجه العاصفة، وتقف أمام العنف الناريّ في عينيه. وعاد صوته يتوسّل: «نجلا، سوف أريق دمي لحمايتك. الدنيا أمامنا واسعة. تعاليْ نهرب إلى أبعد أطراف الدنيا. تعاليْ نبنِ دارنا فوق مشارف حبّنا الكبير... نجلا، عشتُ حياتي من أجل لحظة كهذه!...»

وخرَّ أمامها على ركبتيه، غير عابئ بالتراب الرطب، وأخذ يديها الباردتين، وانحنى فوقهما يجرّحهما بقبلاته، يعيد إليهما الحرارة، وينفث فيهما شوقه وحرمانه.

ولم تقاوم نجلا ولم تتحرّك. لقد شلّت المفاجأة فكرها وحركتها. ورأت نفسها تستسلم بلا إرادة، كأنّها ريشة في تيّار عاصفة هوجاء. لقد شعرت بأنّها تجد نفسها للمرّة الأولى منذ وجودها.

«نجلا أحبّك. قولي: نعم. أي كلمة منك يا نجلا. مُريني أطعك. أنا عبدُك، ألا ترين؟...»

ورفع يديه إلى كتفيها، يهزّها، وقد هاله صمتها وجمودها. ولم يعد يقوى على التراجع. كانت قوة خفيّة تحرّك أعصابه وإرادته، فينهمر الكلام على لسانه، ويخرج من بين شفتيه هذيانًا محمومًا.

تلك الإرادة نفسها كانت تتحكّم بجسده، فاذا به ينفصل عن كيانه الواعي لينصبّ وجوده في شفتيه. وإذا طموحه كلّه يُخْتَصَر في تَوْق لاهب إلى معانقتها. وفي حالة اللاوعي هذه امتدّت يداه تجمعان رأسها، وخصلات شعرها. وغارت شفتاه تسكبان الحياة في شفتيها، وتشعلان فيهما نيران وجده.

كانت تلك محاولة كمال اللاواعية لإقناعها. وانتفضت نجلا، وهي تطرد شبح الحقيقة، وترجو أن يكون الواقع حلمًا، وتفكّر في أنّ شفتيها سوف تحملان آثاره مدى الحياة.

دفعته عنها بيأس، ثمّ انطلقت كالسهم إلى الدار، تحتمي بها منه، وتهرب من هول تجربة لم تستعدَّ لها. وفي هذه اللحظات لم تلتفت إلى ما حولها لتتأكّد من خلوّ السبيل.

وصادف مرور سعدى، فرأتها تندسّ خلف الباب. ثمّ شعرت بوطء أقدام تخبط وجه الزقاق الضيّق، ولم يكن صعبًا عليها أن تعرف كمال.

هرعت نجلا إلى غرفتها وارتمت على السرير، ترتاح من هول الصدمة، وتتحسّس شفتيها بأنامل واجفة لتؤكِّد أنّ الدم لم ينزف منهما، وأنّهما لم تنتفخا من حمل التجربة. ثمّ وقفت أمام المرآة تحدّق إلى وجهها المذعور، وقد تلاشت تقاطيعه، وتجمّعت فوق الشفتين...

أذكر جيّدًا ذلك النهار الربيعي.

تسلّلت أنفاسه المعطّرة إلى رئتيّ، فرحت أعبّ الشذى الدافئ، وفي أذنيّ تزغرد أصوات النهوض في القرية: صياح الديكة في الجوار.

وصرخات الدجاجات، وقد نفخ الحبّ شرايينها، فاحمرّت الوجوه، وبات كيانها مستعدًّا لوضع البيض.

وخوار الأَبقار في الساحة القريبة حيث تتجمّع قبل الانطلاق إلى المراعي.

ونهيق حمار تحت النافذة.

«سنفونيا» الصباح، حجبتها طويلًا عواصف الشتاء البارد، وغلّفها قناع صوتي في الأيّام الطويلة الماطرة. ومدّ الربيع أنامله يمسح القناع، ويفرك الأعصاب، ويدفع الدماء حارّة في الشرايين الحيّة.

تسلّلت نكهة القهوة المطيّبة إلى خياشيمي، فقفزتُ من فراشي، وقد انساب النشاط في عروقي، ودفعني في توق إلى الرقص والطيران ومعانقة الجميع.

«أحبّ أن أعيش يا أمّي. إنّها نعمة كبرى أن نحيا، أن تكون لنا هذه الحواسّ فتصلنا بالوجود، نستقي بها القطرات العذبة المنعشة!...»

وتجاهلت أمّي فلسفتي وهي تناولني فنجان القهوة. ثمّ جلسنا فوق المصطبة، نهضم أنفاس الصباح، واللوحات الرائعة المطلّة على قريتنا.

حدّقتُ إلى وجه أمي... إلى التقاطيع الهادئة الصامتة، وقد بدأت تغزوها ثنيّات مزعجة تحدّت جهودها الساذجة لصدّها وتجنّب أذاها.

في كلّ صباح، في كلّ يوم، كان هناك أبي وأمّي والجيران يلتفّون حولي، يطوّقونني، يدفعون خطواتي، ويحصون أنفاسي.

وفي ذلك الصباح، تمنّيت أن أفعل شيئًا لأكسر الطوق. لم يكن تصرّفي تحدّيًا لهم، بل توقًا إلى الحرّيّة، إلى تحسّس وجودي المستقلّ، إلى الانفلات مع ذاتي المنفصلة عن الجميع.

وأضحك، الآن، حين أفكّر بجدّيّة تفكيري ساعتذاك. لقد علّقت مستقبلي كلّه بتلك اللحظة.

هربت من البيت ولم أخبر أمّي. كنت أقوم بمحاولة أولى للاستقلال، لأثبت لنفسي أنّه يمكنني أن أغلق باب الدار خلفي من دون استئذان أحد.

لم يكن لي هدف معيّن. رأيتني أسير على درب الكروم، أعانق الهواء، وأضرب الأرض بقدميّ، وأنحني من وقت إلى آخر فألتقط الحصى، أداعبها بين أناملي، أو أرشق بها شجرة قريبة.

وظللت أسير، يرافقني وقع خطواتي فوق الحصى، وصدى صرخات الطيور المذعورة بين أشجار الزيتون.

وظلّت قدماي تسيران صعدًا إلى شرفة القرية، إلى صخرة «القرقار» الكبيرة، متنزّه أهالي القرية أيّام العطل والآحاد.

منذ متى تحمل الصخرة هذا الاسم؟ لا أحد يذكر تمامًا.

روى لي أبو الياس، ذات مرّة، أسطورة «القرقار» الذي عاش في القرية منذ مئات السنين.

كان ناسكًا يسكن كوخًا صغيرًا منعزلًا عن الناس. وكان يقضي أيّامه متربّعًا على عتبة الباب، وبين يديه كتاب قديم.

ويمرّ به السكّان، يلقون عليه التحيّة، أو يحملون إليه أطباق الطعام وأرغفة الخبز، فيحفظها في خزانة صغيرة لتجفّ وتتعفّن قبل أن يأكلها.

وكان يردّ على التحيّة بهزّة من الرأس، أو إشارة من اليد.

لم يكن أحد يعرف صوت «القرقار»، ونوع الكلام الذي يخرج من بين شفتيه. تعوَّد السكان أن يروه، كل مساء، متأبّطًا كتابه، متّجهًا نحو الصخرة، فيجلس عليها ويتأمل الطبيعة. ويفلت لسانه فيكرّ الكلام من بين شفتيه مثل حبّات السبحة.

اكتشف سرَّه بعضُ الصبية الصغار، وأخبروا السكّان به. وحين توجّهْت جماعة منهم، في اليوم التالي، لتكتشف سرّ الناسك، لم تعثر له على أثر.

لم يعرف أحد كيف تلاشى الناسك. وبقيت الصخرة تحمل اسمه حتّى اليوم.

ظلّت الأسطورة تتنقَّل مع الأجيال مثل عشرات الأساطير التي تعيش في القرية:

باب «السكّرة»، حيث شاهد أبو خليل، جدّ جدّتي، الجنّيّة الرائعة تمشّط شعرها بمشط الذهب، أسطورة.

وأبو نوَّاف، صاحب الطاحونة، كان يلتقي، كلّ ليلة، بعد انصراف الزبائن، جماعةَ الجنّ الذين اختاروا الطاحونة لإقامة حفلات الزفاف. وهذه أمتع أسطورة.

الأساطير، والجنّ، والتعاويذ...

مرّة أحرقت جدّتي حفنة بخور لتطرد الأرواح الشرّيرة من البيت.

ومنزل أنجلينا كان «مسكونًا» قبل أن تدعو الكاهن ليصلّي بين جنباته. كان يسكنه الجنّ.

وأمّ الياس نذرت أن تقدّم للعذراء «دزّينة» شموع، إذا وجدت غطاء الطاولة: «استعاره الجنّ»، أكّدت أنجلينا، «ليفرشوه في العرس...»

والعين الفارغة!

جفّ الحليب في ضرع البقرة، فهرعت أمّ سليم إلى سعدى، وطلبت إليها أن تطرد العين. كانت هذه واحدة من صفات سعدى. عُرفت أنّها تحفظ الرقية، وإليها تهرع النساء في الأوقات الحرجة: «مرض الطفل...»

«سمّي لي على خرقة بالزيت...»

«احرقي حصّ ملح...»

«ذوّبي زرّ رصاص...»

وسعدى تؤكّد للجميع أنّها أوتيت من المقدرة ما يؤهّلها لترى صاحب العين الفارغة. ترى وجهه يُرسم في الرصاص السائل، ولكن لا يجوز أن تخبر عنه أو تتلفّظ باسمه.

سكّان القرية يشيرون بالأَصابع إلى أصحاب العيون الفارغة، فتهرب الأمّهات بأطفالهنّ من دربهم.

ولا يُسمح للأَبقار السمينة الحلوبة أن تُصاب بأعينهم.

خلعتُ حذائي لأتمكّن من تسلّق الصخرة.

بناء جبّار من الحجر الصلد يشرف على الأَودية والتلال ومساكن القرية.

إنّها قلعة جبّارة، سطحها منبسط يسمح للصبايا بأن يعقدن فوقه جلساتهنّ.

انحنيت أتلمّس النواتئ الحادّة على وجه الصخرة، وأجرح أناملي بملامستها. ثمّ جلست عليها، ومددت رجلي، ورفعت ساعديّ في محاولة للطيران.

وحرّكني شعور غريب، قد يحسّه الإنسان عندما يتحرّر من جاذبيّة الأرض، والثقل المادّيّ. دام هذا الشعور لحظة واحدة وفكّرت: لو تتجمّع الحياة كلّها في هذه اللحظات من النشوة النادرة!

كنت أعوم بخفّة فوق بركة من نور غمرتها الشمس بأشعّتها الدافئة، وراحت الأَلوان تنعكس على صفحتها في تجدّد مستمرّ.

نسيت خشونة الصخرة ونواتئها المنغرزة في ساقيّ. نسيت البرودة الناعمة المستقوية على شمس الربيع. أحسستني جسمًا أثيريًّا يحلّق ويصعد منعتقًا من كلّ قيد.

وراحت القرية تصغر تحت وقع نظراتي، وتتحوّل ألوانها، فلا أستطيع تمييزها. وظلّت تصغر حتّى باتت بحجم العنكبوت.

ورأيت دروبها المنتشرة في كلّ جانب، الموزّعة بلا تصميم، رأيتها تتحرّك وتجري بها فتصل شرايينها بشرايين العالم المقيم وراء الأفق.

كنت أجهل ذلك العالم، كما أجهل اليوم دنيا الآخرة. وبقيت تصلني به أسلاك خفيّة غامضة، فأراه من خلال الكتب، وأحاديث الغرباء الذين يزورون القرية في فصل الصيف، ومن أحاديث «شامل» البيّاع الذي يحمل إلينا الأشكال الجديدة.

وظلّت الأحجام تصغر في عينيّ، والأشكال تتحوّل، والصخرة تضاعف سرعة انطلاقها، حتّى أرجعني إلى الواقع نعيقُ غرابٍ راح يحوِّم بالقرب منّي فوق جيفة حمار.

كانت سهول كثيرة تنبسط في عينيّ. وفي خدّ السهول تتربّع قريتنا، الينبوع الوحيد الذي يبادل الأرض الحياة.

القرية ومقبرتها تقيمان، هناك، برهان الحياة والفناء في تلك المسافات الشاسعة... ثمّ تمتدّ الأرض حمراء، جدباء، خضراء، مخصبة أو حبلى بأشجار الزيتون واللوز، ومتورّمة بنتوء الصخور القاسية.

وراء كلّ سهل إنسانٌ مهاجر. وفي كلّ غصن، متهدّل فوق شجرة حزينة، شوقٌ إلى السواعد السمر المفتولة تفتّت التراب، وتشذّب الشجر، وتعيد إلى الأرض شبابها.

والسواعد تتلاشى. تلوّح بالمناديل من نوافذ العربات المستعجلة. عربات تزحف في كلّ يوم، وتهرب في دروب لا حدود لها.

وتبقى السهول تئنّ في جدبها. وتجفّ العروق في الكرمة المخصبة. ويتّصل الجفاف بالمعاصر، فيغسل العاصرون أيديهم وأرجلهم، ثمّ يقفلون الأبواب، أو يحطّمونها، ويلحقون بمن رحل.

وتنتقل عدوى الجفاف إلى ضروع البقرات السمينة، إلى الأثداء الناضحة باللبن في صدور الأمّهات الصبايا، إلى أرواح الشباب المتسكّعين في الأزقّة الفارغة.

مسحتُ هذه الخواطر المزعجة، وشيّعت الحقول بنظرات عاشقة، وأنا أتمنّى لو أبقى معلّقة هناك، في ذلك الوجود المنفصل، أعيش مع الصخرة وأطياف الأساطير القديمة.

«هل يموت الحبّ يا منى؟

هذا الاختبار الذي حوّل حياتي، وعاش لحظات عميقة في تفكيري، هل يتلاشى في يوم؟

هل أنهض يومًا، وأمدّ يدي أتحسّس المشاعر التي رافقت أيّام الشتاء والصيف، وعواصف الخريف، ونسمات الربيع، فلا أقع لها على أثر؟ أجيبي يا منى. ساعديني بكلمة...»

كنت مستلقية على المصطبة الصغيرة، أنعم بدفء الشمس، وأفتح رئتيّ وحواسّي لأعبّ حرارتها، ويداي منطلقتان تعملان في حياكة معطف من الصوف. وكانت مِرسال تحمل الصنارة، وقد تجمّدت في يدها، ومات المعطف فوق ركبتيها.

ومضت تتكلّم وكأنّ الكلام وسيلة لشفائها من آلام ما برحت تسحق أضلعها وتنحت عظامها.

عدت أحدّق إلى وجه مِرسال، فتراءت لي اللمسات القاتمة التي خلّفتها أيّام طويلة من العذاب والشقاء.

وأسائل نفسي، الآن، وأنا أستعيد صور مِرسال من الذاكرة: هل يُعقل أن يتضخّم الألم كذلك؟ وهل في العالم نساء كثيرات أحببن مثل مِرسال؟!

وتعود صورة وجهها تتراقص في ذاكرتي، في أوضاعها الكثيرة التي شاهدتها ودرستها، خِلال تلك الأيّام... الأيّام التي تلت سفر راجي.

رأيتها مرّة، فتقطّعت نياط قلبي ألمًا.

كانت تجلس في غرفتي، وتقرأ لي بعضًا من قصائدها. وفجأة طرحت الأوراق على الأرض، وراحت تنشج وترتعش. وجمدت عيناها، وهما تحدّقان،

من النافذة إلى الأفق، حيث كانت الشمس تنقل خطاها، تنتقل من النهار لتغيب خلف الأفق. واقتربت منها، أحضنها وأهدّئ ثورتها، وأغمر شعرها ورأسها بين ذراعيّ، وأنا في جزع وحيرة.

لا أذكر الكلمات التي تدفّقت من بين شفتيّ ساعتذاك. كانت أصواتًا بلا معنى، كاللحن الذي تدندنه الأمّ في أذنيْ طفل ممغوص.

وانهارت مِرسال من قمّة آلامها، واتّكأت على كتفي، وقد صمت كلّ شيء حولنا، ولم أعد أسمع سوى أنفاسها الهادئة.

مدّدتها على السرير، وأنعشتها بقطرات ماء الزهر، ثمّ جلست أمامها، أنتظر ساعة يعود إليها وعيها.

ومرّة أخرى خرجنا معًا إلى النزهة في الكروم المجاورة. كنّا نسير على مهل، يسكرنا أريج عذب تبثّه الأرض من شقوقها الناضجة المستعدّة للعطاء، وإذا مِرسال تتركني وتجري بسرعة. وظلّت تسير وأنا أتبعها بنظري وأتأمّلها تصغر وتصغر، على الطرقات المتعرّجة، حتّى رأيتها من بعيد تنهار فوق جذع شجرة الزيتون. وحين وصلتُ إليها، كانت تضرب رأسها بالقشور الجافّة القاسية، وتمرّغ كفّيها بالنواتئ الجارحة.

ورأيت مِرسال، لدى زيارتنا لنجلا في عشيّة أحد الأيّام، تعود إلى هذه الحالة من اليأس والقنوط.

كانت نجلا تعرض علينا المذياع الجديد الذي اشتراه أبوها من المدينة (أوّل مذياع تعرفه القرية) أدارت المفتاح، فانطلقت منه أغنية حزينة، فيها شوق وبوح وألم.

وانتفضت مِرسال فجأة، ثمّ تركتنا وخرجت تهيم على وجهها بين الأزقّة. وتبعتها مسرعة. كنت أخشى أن ترتكب حماقة.

واعترفت لي ذات مرّة بأنّها وصلت إلى شفير الهاوية وأحسّت أنّها تقف على حافّة عالم الجنون، بل أنّها تخطّت العتبة، ودخلت ذلك العالم في لحظات كثيرة.

كنت أتألّم من أجل مِرسال، وأفكّر في وسيلة تساعدها للتغلّب على مشاعرها، ولم أكن أعلم، يومئذٍ، أنّ الزمن يشفي كلّ شيء.

وأعادني صوتها من تأمّلاتي.

لقد حفظتْ أنشودةً واحدةً ونسيتْ كلّ شيء: راجي.

وفي غياب راجي زاغ الوجود في عينيها، وفقدت الحياة قيمتها.

وحاولتُ أن أستخدم التأنيب أسلوبًا جديدًا مع مِرسال، لعلّه يعيدها إلى الواقع، فقلت لها بحدّة: «ألا تكبرين يا مِرسال؟ ألا تتغلّبين على طفولتك وتنعتقين من عالمك الخياليّ هذا؟»

– كيف يا منى؟ بالله عليك أخبريني. أجل، أخبريني الآن. فأنا مقبلة على تقرير مصيري... سوف أدفن راجي وذكريات الأَيّام الماضية.

ومدّت يدها إلى جيب خفيّ في ثوبها، وأخرجت منه صورة شابّ وسيم الملامح، يبدو على وجهه الطابع اللبنانيّ المتأمرك: «إنّه جون، العريس الجديد، جون...»

وحسبتها شطحة أخرى من شطحات مِرسال في عالم الخيال أو الجنون. وبدت الدهشة في انتفاضة جسمي كلّه. وتابعت مِرسال موضحة: «أجل، ماذا تقولين أنت، أيّتها العاقلة الناضجة؟ بماذا تنصحين صديقتك المقبلة على الزواج؟ جوني ابن نازلي بو عمّار. تسمعين بها؟ إنّهم جيران عمّتي في المهجر. لمحت نازلي صورتي مع أخي شفيق فأعجبت بها. ثمّ دفعت جوني إلى الإعجاب ببنت البلاد، وحدثّت أخي فقبل، ولم يبقَ سوى موافقة الأهل.»

– وأنتِ، يا مِرسال، ماذا تعرفين عن جوني هذا؟ إنّك في حالة لا وعي يا صديقتي. تروّي، فكّري في الأمر أكثر.

فأجابت يائسة:

– لم أعد أعرف شيئًا يا منى. لقد أضعت دروب حياتي وباتت كلّها دربًا واحدًا يقود خطواتي إلى هدف معيّن، إليه... السفر هو السبيل الوحيد للهرب من هنا، من أتّون الشقاء.

– ولكنّه ضرب من الجنون يا مِرسال.

فردّدت مستسلمة:

– الحياة كلّها جنون. بربّك أخبريني، ما مقياس العقل؟ ما الخطأ والصواب؟ أنت تعيشين في الخيال يا منى. أمّا أنا فسوف أتمرّغ في تراب الواقع، سوف أرسل إليه موافقتي فورًا، ثمّ...

وخنقت كلامها الدموع. دموعها السخيّة كانت وسيلة أخرى لمسح الألم واليأس. ولمحتُ قطرات منها تنحدر باستسلام وتستقرّ على المعطف الهامد فوق حضنها.

كلّنا نعيش في هرب دائم. وإذا حاول الإنسان أن يعدّ سبل هربه يقف مشلول الحركة، خائر التفكير.

نهرب من الفراغ ونحتمي بالعمل، ونهرب من العمل إلى المتعة. وحين يطاردنا الحرّ في الصيف نغرق في لجّة الأمواج.

وبعض الناس ينجحون في الهرب، فيدعون ذلك سعادة.

لقد خلق الإنسان كلّ شيء استجابة لرغبة الهرب في نفسه. الهرب من الفكرة التي تطارده طوال العصور. تطالعه في التراب، في نعيق البوم، في أنفاس المقابر.

ويتقارب الناس، يحيون قطيعًا دائم الحركة والثرثرة لينسوا. ويشدّ الرجل المرأة إلى جسده، وتحبّ المرأة الرجل، تضيع في عالم قوّته، وتفنى في ذرّات جسده. ينجبان البنين والبنات، يحاربان الفناء بالأولاد، بالتناسل. ثمّ يكتشفان أنّ طاقة الهرب ضيّقة، فيرتفعان فوق التلال، وينطلقان في انبساط السهول، في الجوّ، إلى ما وراء الفضاء. وإذا هما في نهاية الطريق يتقابلان مع الشبح الذي طالما هربا منه...

كانت مِرسال تتوق إلى الهرب من القرية، لعلَّ السبل المنفتحة عبر البحار توصلها إلى نقطة الاستقرار، وتضع خاتمة للدوّامة التي تدور فيها، وتفتح لها الحياة صدرها من جديد.

وحين ناداها أبوها ليسألها رأيها في المشروع الجديد، أجابت بالقبول. فكتب إلى ابنه رسالة مختصرة قال فيها: «أعطيهم قول، يا شفيق...».

لم أعد أتطلّع وجه أمّ شفيق بعد ذلك. كانت تعلم أنّ مِرسال مشرفة على الانتحار، وأنّه السبيل الوحيد لخلاصها ممّا تعاني.

شُغلت مِرسال، في الأيّام التالية، باعداد الأوراق للسفر وتهيئة الجهاز.

كانت ثيابها لا تليق بعروس مسافرة إلى أميركا.

«أمّ شفيق قويّة، يا أختي. عرفت كيف تجوّزها بكّير...»، قالت حنّة في جلسة كانت تنعقد أمام منزل أنجلينا.

فردّت عليها العجوز كأنّها تتفوّه بلسان القدر: «الجواز سترة، يا بنتي. وهيدي آخرة كلّ حرمة...»

وردّدت سعدى: «دخْلك، شو صاير عليهن، بنت وحيدة يبعتوها عا أميركا؟ شو، انْقطعت الشباب بالضيعة؟ هيدا كلّو دبّار عمتها نمّورة. بعد ما نسينا نمّورة...».

دعتني مِرسال، مرّة، لمرافقتها إلى دار الخيّاطة وردة، وهي جارة أبو راجي.

«قدماي لا تحملاني، يا منى، صوب بيته. هاتي يدك. ضعيها هنا فوق صدري، وتحسّسي خفقان قلبي. لا أقدر أن أتصوّر الدار فارغة. أشعر بأنّه سيطلّ الآن من الباب أو من النافذة. ويفاجئني بتحيّة مرحة...»

بقيت مِرسال تتحدّث طوال الطريق، وخفضت جِرْس صوتها حين وقعت عيناها على أبيه.

كان أبو راجي يجلس وحده على كرسيّ صغير، يستمتع باللحظات الدافئة، ويقلّب بين يديه أوراق رسالة.

وفاجأته بالتحية: «الله معك، عم بو راجي.»

– منى؟ أهلًا ومرحبًا... مبروك يا مِرسال. انشاء الله بتتهنّي.

وغصّت مِرسال بالجواب:

– الله يهنّيك يا عمّ...

– تفضّلوا، اقعدوا. شو، لويْن من هَوْن؟

فأجبته مسرعة:

– واصلين لعند وردة شوي. شو أخبار راجي؟

– نشكر الله، يا بنتي، مبسوط. ميّلي يا منى، اقْري لي هالكلمة. ما عدنا نشوف مليح يا بنتي. البركة بهمّة الشباب.

تناولتُ الورقة أقرأ العبارة المستعصية، فسقطت من بين الأوراق صورة صغيرة لاحقتها مِرسال بنظراتها، ولم تجرؤ على أن تنحني لتلتقطها بيدها. فقمت عنها بالمهمّة، وتأمَّلت الصورة... كان راجي يقف بين اثنين من المهاجرين وقد حمل كلٌّ منهما كأسًا. وقرأت على الوجه الآخر: «عم نشرَب كأسك، يا أبي!»

حوّلتُ الصورة إلى مِرسال، وأنا أصطنع اللامبالاة: «شوفي، هيدا راجي يا مِرسال. صار أميركاني!...»

كانت مِرسال شديدة التحفّظ. وكان تحفّظها يزداد أمام أبيه. وكنت أعلم كم تتوق إلى أن تراه. وظلّت لحظات تحدّق إلى وجهه، وأنا أتبادل الحديث مع الشيخ، حتّى سمعتها تقول: «وردة ناطرة، يا منى. بخاطرك عمّ بو راجي...»

تابعنا المسير على نغم صوتها: «لقد تغيّر كثيرًا يا منى. حتّى ابتسامته لا تتّصل بهذا العالم. رأيته غريبًا ضمن الإطار الجديد. لمحتُ في عينيه سخرية تتحدّاني. ولكنّي لا أصدّق ظنّي، فما زلت أحبّه، وقلبي ينخلع كلّما وقعت عليه عيناي!...»

ثمّ تابعت كلامها كأنّها تحدّث نفسها: «تقع عيناي مصادفة على وجه يطلّ من صورة، فتسري الرعشة في عروقي، وتخبط المشاعر جدرانَ صدري. وأحمل صورة أخرى هنا، في الجيب الملاصق لجلدي، أحملها ثقلًا يزيد في كثافة الضباب المعترض سبيلي».

في تلك الليلة، جلست مِرسال، بعد ما نام والداها، وكتبت أجمل قصائدها.

أخذت حنّة الأمر على عاتقها فقد شعرت فجأة بأنّها تحبّ سلمى، تلك المرأة الساذجة، وأنّها هي المسؤولة عن تدبير شؤون الآخرين إذا هم تخلّفوا عنها. وزاد حماستها حديثٌ دار بينهما وبين أمّ سليم منذ أيّام، لمست فيه ميلَ هذه إلى تزويج ابنها: «دبّرينا يا حنّة، هالصبيّ صار خرج الزواج، وإنتِ بتعرفي بنات البلد. بدنا شي بنت حلال...»

وراحت تعرض معها الفتيات واحدة واحدة.

وسليم شاب هادئ الطبع، دمث الخلق، لم يخرج مرّة على طاعة أمّه، بل كان يخضع لإرادتها خضوعًا تامًّا. ويحسّ أنّ هذه المرأة تألّمت كثيرًا من أجله، وضحّت بشبابها من أجل شبابه. وكان هذا الدرس يتردّد على مسمعه طوال لحظات عمره، ولم تترك أمّ سليم فرصة واحدة تمرّ من دون أن تغرز هذه المعلومات في قلبه: «الأهل ما بيتكافوا. غضب الربّ من غضب الوالدين. شو إلي بهالدني غير سليم؟ الله يخلّي ولاد الناس ويخلّيه...»

وتجيش عاطفتها، فتدفعها إلى الاعتراف بفضائل وحيدها: «يقبر إمّو مثل الغنمة القرعا. أخلاقو مثل أخلاق البنات!».

وسليم الطيّب، المطيع، عاش ليحقّق لها مفاهيمها ونظرتها إليه، فكان يحسّ وخز الضمير إذا هو انحرف عن إرادتها قيد شعرة.

حين سافر أبو سليم، في المرّة الأولى، إلى أميركا، لم يكن الصبيّ تجاوز عامه الأوّل، فنشأ تحت جناح أمّ تفتقد عاطفة الرجل، تركها رجلها عروس صبيّة وهاجر.

ولم يذكر أحد أنّ أمّ سليم تلفّتت حولها طوال غياب زوجها، أو حدّثت أحدًا من الرجال. كانت مخلصة له الإخلاص كلّه. وعاشت حياتها على الرسائل

الشحيحة يقتّر بها عليها من حين لآخر. رسائل أبو سليم كانت مقتضبة تحمل أخباره وسير العمل، وتهمل العاطفة.

وتحوّلت عاطفة المرأة لتنصبّ في تيّار جديد. فقد جمعت حرمانها وقلقها ومخاوفها وحيويّة الشباب، وسكبتها كلّها في حبّها طِفْلَها.

ظلّت ترضعه حتّى جفّ الحليب في ثدييها. وكبر الفتى، وظلّ ينام قربها، يستمدّ أنفاسه من حرارة أنفاسها، ويصبّ شخصيّته في قالب أعدّته بيدها، وينمو في كثافة ظلّها.

ومرّت الأيّام، وسليم يحيا تحت خيمة من العاطفة المحرومة المسيطرة الجامحة.

ولمّا شبّ، وباتت له المقدرة على الاستقلال والانفصال عن أمّه، أحس بعجزه، فظلّ يتفيّأ ظلّها راضيًا، وينظر إلى الكون بمنظارها.

وحين عاد أبو سليم من المهجر، اقترب منه يعانقه، يلفّ ساعديه الباردتين حول الرأس الأشيب، ويتأمّل بهدوء الرجل الذي عرفه من خلال أحاديث أمّه. وحاول أن يتحسّس طاقته على محبّة هذا الرجل الغريب، وقبوله ضمن إطار الأسرة، فعجز. ولكنّ طبيعته المستسلمة بقيت تحجب حقيقة مشاعره، وظلّت الرابطة التي تشده إلى أبيه تجمع البرودة والتهذيب والاستسلام المطيع. وكان، في بعض الأحيان، ينقّل بصره بين أمّه وأبيه، فيراهما جسدين متباعدين ونفسين متناقضتين.

وجهها يرسم مأساة التضحية والعاطفة والتكريس، وأبوه صورة باردة تقيم في إطار مذهّب.

وكأنّ الأب أحسّ بالصقيع يلفحه من موقد داره، فارتعدت مفاصله وتاقت نفسه إلى الهرب، إلى حياة تعوّدها هناك، في عالم منفصل تمامًا عن عالم هذين الشخصين، فلم تطل إقامته في القرية، وحزم أمره على السفر من جديد.

ولمّا طلب من سليم أن يرافقه اعترضت الأمّ: «اتْركه يا بو سليم. خلّينا نجوّزو، وبعدين منلحقك».

وهكذا سافر أبو سليم.

لقد ذاقت المرأة طعم السطوة والاستقلال مرّة، ورسمت لحياتها مخطّطًا ثابتًا مكتملًا، وباتت الأصباح والأمسيات تكرّ برتابة مريحة، وأضحى وجود الزوج يضايق هذا النظام.

كادت أمّ سليم تؤنّب نفسها وهي تجترّ هذه الأفكار، إذ شعرت بشيء من وخز الضمير. ثمّ راحت تقارن بين شعورها الآن وتلك الأحاسيس التي هزّتها هزًّا وكادت تخلع جذورها لمّا ودّعها في المرّة الأولى. لقد أحسّت، يومذاك، أنّ العالم ينهار، وأنّ جسدها الناحل لن يقوى على الاستمرار في الحياة. وأوت إلى دارها تجمع عاطفتها وتصبّها في دموع حارّة غزيرة تبلّل وسادتها كلّ مساء.

فكّرت، في إحدى المرّات، أن تجمع دموعها في قارورة تبعث بها إليه عربون وفائها وإخلاصها. فلمّا أشرقت الشمس في صباح اليوم التالي، صرفت الفكرة، وحملت طفلها تناغيه وتطلّ على الوجود من خلال عينيه.

تضاحكت حنّة بخبث: «ولو! أنتِ ستّ العارفين يا أمّ سليم!»

ثمّ راحت تعدّد لها فتيات القرية، وتبالغ في إظهار عيوب كلّ منهنّ، حتّى وصلت إلى نجلا: «شو قولك يا أمّ سليم؟ هيدي بنت عاقلة، كأنّها خلقت من شان سليم. إن مشيت جنبه بتكون مثل التشكيلة... نجلا أحلى الموجود...»

ومضت حنّة تتابع حديثها، وتسرد المغريات التي تزيد في رغبة الأمّ، حتّى قالت: «وما تنسي بو هاني، أحواله مليحة... أنا بكفل إنّه بيجهّزها...»

كانت أمّ سليم، حتى تلك اللحظة، تفكّر في أنّ المال لا يهمّها، ولكنّها اكتشفت ضعفًا جديدًا في نفسها، ورأت أنّها تبحث عن الأعذار لهذا الاستسلام: «شو عليه إذا وفّرت على سليم كم قرش؟».

سليم، الشابّ المدلّل، كان يعيش من خيرات أرضه، من دفق المواسم السخيّة: مواسم القمح والعنب والزيتون.

غير أنّ المواسم باتت جاحدة كأنّ ضرع الأرض قد جفّ، وأمسكت التربة دفق خيراتها. وهذا ما كان يدعو أنجلينا إلى أن تردِّد، من وقت إلى آخر: «رزق الله عا أيّام زمان! رجال العتق راحوا، وراحت معهن الخيرات!».

أمّا أمّ سليم فاقتربت من حنّة أكثر وفي عينيها إشراقة أمل: «دسّي لنا النبض يا حنّة. إنتِ مثل أخت...».

ردّت حنّة شالها الرماديّ على رأسها، ولفّت أحد طرفيه حول عنقها، وظلّ الطرف الآخر مفروشًا على جانب الصدر، وراحت تحثّ الخطى إلى بيت أمّ هاني.

كان حظّها كبيرًا، فقد وجدت سلمى جالسة على المصطبة مستسلمة للدفء، ويداها تعملان في تنقية حبوب العدس، تعدّ منه طعام العائلة. وفاجأها سلام حنّة: «الله معك يا أمّ هاني!...»

وانتفضت سلمى:

– أهلًا بحنّة، أهلًا وسهلًا. إلو زمان هالقمر ما بان!...

– ما إلنا غنى عن الفضل. كيف الشباب، وبو هاني، عسى مبسوطين؟

وهكذا مضت اللحظات الأولى من الزيارة في ترديد العبارات التقليديّة، والسؤال عن الخاطر والأحوال. ولم تُضع حنّة كثيرًا من وقتها، فولجت الموضوع بلا مقدّمات: «شوفي، يا سلمى، إنتِ بتعرفي غيرتي عا بيتكم، ومحبّتي لنجلا. والجواز آخرة كلّ بنت. الجواز سترة يا أمّ هاني.»

وتمتمت سلمى:

– ما عنّا شكّ بمحبّتك يا حنّة...

وتابعت حنّة:

– شو قولك بسليم؟ أنا بشوف إنّو الشابّ الوحيد اللي بيليق بنجلا. وهيدا شابّ عاقل، وبيكون طوع بإيديكن...

– مثل ما الله بيريد يا حنّة. الله يخلّيه لأهلو ويخلّي كلّ ولاد الناس. بس أنا ما بقدر إحكي حتّى شاور بو هاني والشباب.

ردّدت سلمى ذلك، وقد بدا في صوتها بعض لين واستسلام.

وقبل أن تودّعها حنّة، طرحت ورقتها الأخيرة: «شوفي، يا أمّ هاني، البنات ما بينعطوا ريق حلو. ما تخلّوا بنت صغيرة تتحكّم برقابكن...»

استخدمت سلمى حماستها كلّها، وهي تسرّ بالموضوع في أذن أبو هاني: «أنا يا رجّال موافقة على طول...»

وردّ زوجها: «بسّ يا مرا ما بيصير. شوفي البنت شو بتقول.»

وانفعلت أمّ هاني:

– انت عم بتطمّع الأَولاد كثير. أيمتين كان البنت لها رأي؟ كنّا بنات وجوّزونا أهلنا. ما خرب الكون غير لمّا صار للمرا كلام. أنا بعرف دبّرها.

لم تكن مهمّة أمّ هاني سهلة كما تصوّرت. فقد كان جدارٌ كثيف من الصمت يقف بينها وبين ابنتها. أحسّت فجأة أنّ هذه الفتاة التي كانت، حتى الأمس القريب، طفلة غرّة، قد كبرت وباتت قويّة، تقف على شرفة عالية. لذلك بدأت تهيّئ الجوّ لمفاتحة نجلا بالأمر.

وأخيرًا، جمعت شجاعتها واقتربت منها.

كانت نجلا قد فرغت من عمل الصباح، وجلست قرب النافذة وفي يدها شغلها اليدويّ. فأعدّت أمّ هاني ركوة القهوة، وتقدَّمت تصطنع الابتسام: «اتركي الشغل، واشربي فنجان قهوة.»

وأحسّت نجلا، بحدسها، أنّ أمّها مقبلة على حديث هامّ، فاستعدّت لتجبهها بقوّة، بتلك القوّة التي نشأت في صدرها في الأشهر الأخيرة، وجعلتها واثقة بنفسها كلّ الثقة.

وكسرت أمّ هاني الجليد: «يا بنتي، صار لازم تفكّري بمستقبلك.»

وزاد الخفقان في صدر نجلا. كاد الفنجان يهوي من يدها، فأسندته إلى طاولة قريبة، وعقدت يديها فوق صدرها، تنتظر نهاية الحديث.

«أمّ سليم باعتي تطلبك لابنها. ما حبّينا نجاوب قبل ما نسألك. فشو قولك يا بنتي؟»

رفعت نجلا عينيها إلى أمّها تؤكّد أنّها تجلس أمامها بالفعل. ثمّ ضاع رأسها في دوَّامة الصور الكثيرة: سليم وكمال، يا لبعد الشبه بين الاثنين!

هذا تراه بعين الحبّ، وذاك لا تكاد تشعر بوجوده.

كمال يندفع إليها بجرأة. يدفعه الحبّ. شلّالات عنيفة من الحبّ تنساب بين أنامله من نور عينيه، وتنصبّ جميعها عند قدميها. وسليم يبعث رسولًا إلى أهلها، لا يجرؤ على مقابلتها.

كمال يشرّع أبواب العالم أمامها. وسليم يحاول أن يطبق على عالمها ويخنقها في شرنقة ضعفه.

كمال تقف رواسب الأجيال كثيفة قاسية وتفصله عنها، وسليم تحمله إرادة عمياء ليعبر سبيلها، فيصبح رفيق العمر وتاج الرأس!

وكادت تصرخ. غير أنّ صوتها اختنق في صدرها الهائج: «ولكن أنا لا أحبّه يا أمّي...»

وكأنّها أشعلت بذلك فتيل المتفجّرة المكبوتة في صدر أمّها، فثارت سلمى.

تحوّلت الإنسانة المستسلمة، صاحبة الوجه الوادع المنبسط التي تحيا بقوّة الاستمرار، إلى لبوءة يثير شراستها انفعال قاس. وكشّرت اللبوءة عن أنياب نبتت لها في تلك اللحظة، واندفع البركان يصبّ الحمم.

تحرّكت فيها رواسب الأجيال. دبَّت الحياة فجأة في السمكة المتحجّرة، وباتت حوتًا يكاد يلتهم الصبيّة الحسناء.

لقد أكّدت عبارة نجلا لأمّها أقوالًا رفضت أن تقبلها من فم سعدى: «أنّ نجلا تحبّ كمال...»

وظلّت الأمّ ترقص في ثورتها الجامحة، فتمزّق ثوبها وتنبش شعرها، حتّى تملّك الفتاة رعبٌ قاتل، وخشيت أن تكون أمّها الهادئة العاقلة قد أصيبت بمسّ من الجنون...

وسمعت نجلا شفتيها تردّدان: «كما تشاؤون يا أمّي. ما تعوّدت أن أخرج على خاطركم...»

وحدي أنا بعدهم. سوف يبقى لهذه الوحدة مكان رحب في صدري.

وظلّت قدماي تتبعان الدرب الضيّق، تجتازان الفجوات والتعاريج، تدوسان الحشائش الخضر. لقد أفسح الهجر في السبيل إليها، فاجترأت على أن تطلّ برؤوسها الناحلة، تثبت وجودها في ربيع الحياة.

إنّه السبيل الوحيد الذي يقود إلى المقابر. والناس يمرّون فوقه في المناسبات، ويجتنبون وطء حصاهُ في الأيّام العادية. فرائحة الموت تفوح من التراب، تزكم أنوفهم، وتذكّرهم بالحتميّة، بالنهاية.

ويهربون.

ولا أعلم، الآن، لماذا جعلتُ سبيلي من هناك، في ذلك النهار.

لقد جفّ التراب على قبر مريم، ونبتت فوقه الحشائش النديّة، وبعض الزهور البرّيّة.

يا لَلسخرية!

تسمّرت قدماي بين العالمين. حاولت أن أستوعب الأصداء من دنياهم الزاخرة بالحياة، ومن ذلك العالم الصامت الرهيب.

عادت العصافير تبني أعشاشها في السنديانة الجبَّارة. ومن حين إلى آخر، كانت تنبّهني إلى وجودها زقزقاتٌ مرحة، وخبط أجنحة تهمّ بالطيران.

وأمامي انبسطت القرية، راضيةً، ملتهبةً بالحياة.

إنّهم يستعدّون للعيد الكبير.

كان عيد الفصح، ولا يزال، أروع الأعياد عندنا. لقد اختار اليهود أجمل الفصول ليصلبوا المسيح. اختاروا الربيع!

ومرّ فوّاز بذاكرتي.

فوّاز لم ينتظر إِطلالة الربيع، ولم ينتظر حكم القانون، فعاقب نفسه بالهرب من دنيا العاقلين.

رأوه مساء أمس. كان بعض الحطّابين يتوغّلون في الغابات البعيدة، وشاهدوا شكلًا آدميًّا رهيبًا، كأنّه وحش في صورة إِنسان.

شعره مسترسلٌ فوق لحية مشعَّثة، وجلده تخفيه طبقة من الوحول والأقذار. وبدت ثيابه مهلهلة تكشف عن الجزء الأكبر من جسده.

مرَّة واحدة أبصروه.

ثمّ اختفت آثاره.

لقد اختار كهفًا في سفح الجبل، وأسدل ستارًا كثيفًا من البلاهة والجنون بينه وبين القرية. ونسيه الجميع.

انطلق الجرس في رنينه المرح. والشمس اتّكأت على الأفق الغربيّ. وظلّ نقاب ورديّ شفّاف ينسدل على صفحة حرمون، يلوِّن الثلوج الناصعة بلون الغسق الرائع. والأفق بدا مشتعلًا مثل أتّون ينصهر في جوفه معدن البرونز.

وسمعت خوار بقرة في حقل قريب، ونداء الناطور في الكروم البعيدة، ومزمار قصب تجرح حنجرته أنغام الحنين والعذاب.

وعدت أنقّل بصري فوق السطوح الترابيَّة المتواضعة.

كانت المداخن السوداء تنتصب مهجورة باردة. والنوافذ الضيِّقة مشرعة تجرع الدفء وتعب النسمات المضمّخة بعطر الربيع. وفي البيوت، الناس يُنهون الاستعدادات الأخيرة لليوم التالي، يوم العيد.

غسلوا الفرش والأثاث، نزعوا عنها أنفاس الدخان ولمسات الرطوبة الباردة.

أعدّوا الأطباق الشهيَّة، والحلوى اللذيذة. ولمَّعت النساء الأباريق النحاسيّة استعدادًا لقهوة العيد.

ولمّا انتهوا من هذا كلّه، غسلوا أجسادهم بالماء الحارّ، و... وداعًا يا فصل الصقيع!

«عقبى لأولادك يا أمّ سمير، تمّت خطبة سليم ونجلا... عيَّنوا العرس بعد العيد...»

رافقتني عبارة حنّة مع كثير من الأقوال التي ردّدتها صباح ذلك اليوم... لقد حملت نتيجة حصادها وجاءت تشرب قهوة الصباح عند أمّي.

كانت حنّة تعيش معنا في المدّة الأَخيرة. أقوالها تنحني فوق الطبق، تسير معي في دروبي. كانت تودّ لو تجعلني هدفها التالي: «ودخلك، شو ناطرة ما بتخطّبي منى؟ اللي بيجي اليوم ما بيجي بكرا. فكّري يا أمّ سمير...»

عدت أوقظ الحصى النائمة على الدرب الضيِّق، وأفكّر: ماذا أنتظر؟ ما هو الهدف الذي أسعى إليه؟ ليتني أتطاول نحو عتبة الغد، أطرق أبوابه، ألجه وأقرأ الصفحة المكتوبة باسمي!

وكنت ألمحه من وراء الأَفق، من النافذة الغربية، في مكان غروب الشمس، وأتمنّى لو أتعلّق بأحد حبالها الذهبيّة، وأنطلق معها في إحدى جولاتها البعيدة.

لم أكن أصدّق أنّ الشمس كوكب ثابت، فقد كانت حياتنا مستمدّة من حركتها، من ساعات الشروق والغروب.

مِرسال وجدت سبيلها، وصوبه حوَّلت خطواتها التالية.

ونجلا خنقت مشاعرها، وسارت مع القطيع.

ومريم هناك بين دفَّتي الرخام البارد.

وأنا؟ أنا أقطع الدروب قلقة، تعصرني وحدة قاسية، وتجرح قدميَّ شكوك الغد وأشواك الحيرة.

ماذا أنتظر؟

الحقّ مع حنّة.

لست أدري ماذا. غير أنّي بقيت أنتظر وأهرب من التفكير في مصيري ضمن تلك الحدود الضيّقة.

كانت ترعبني فكرة الغد إذ أرى نفسي مثل «شاهينة»، و«ألماس»، و«عدلا»، وسواهنّ من النساء.

إنّ قيمة الواحدة منهنّ ووجودها الإنسانيّ كلّه يتوقّفان على عدد الأولاد.

وتدور السنة دورتها، وتبقى المرأة منهمكة بالحمل، والرضاعة... أو بالاثنين معًا.

ويتدفَّق الأطفال من آلة التفقيس: واحد... اثنان... ثلاثة... ثم يضيع العدد!

أمٌّ شعرها الأشعث يتهدّل على كتفين خائرتين، وقميصها مشقوق عن الصدر ليسمح للثدي الذابل بأن يتدلَّى، ويندسّ في الفم الشره. وثوبها بهتت ألوانه، ونسلت خيوطه، وتهدّل على ساقين كساهما الشعر والغبار.

شاهينة، وعدلا، وألماس راضيات. ترسم الواحدة منهنّ بسمة بلهاء على شفتين مقرّحتين ووجه طلاه الغباء، وتمضي عبر الأزقّة، تردّ الرضيع إلى صدرها. ويتعلّق بها أطفال يسحّ المُخاط من أنوفهم، ويأكل العمش عيونهم، ويلتصق الذباب بشفاههم.

وأبو الأطفال يكدح طوال نهاره. يحفر التراب بأظافره. يفتّت الصخور بساعديه. ويدفن أتعاب نهاره في ضجعة الليل.

ويطلّ طفل جديد.

لا. لن أبقى هنا. بقائي لن يعيد المرح إلى الأمسيات الساحرة. لن يعيد الخير إلى الأَراضي الجدباء، والحركة إلى القناطر المهجورة. يداي تجهلان إطعام دود القزّ وغزل الحرير. وأذناي لم تعتادا سماع «طقّة» النول.

وتابعتُ الزحف في الطريق المهجور، وأنفاس المساء تتململ بين أوراق الزيتون والسنديان، وتهفّ عليّ، من الأفق الغربيّ، ناعمة مطمئنة، تضع الخاتمة ليوم آخر.

أشرقت الشمس هنيئة راضية. بدت كامرأة قضت الليل بين أحضان رجل تحبّه.

وراحت توزّع دفئها، وتعكس سعادتها على البساتين الخضراء، والجوّ النقيّ من الغبار.

استيقظت القرية على قرع الجرس. وراحت الأَصداء النحاسيّة تستغيث ملهوفة، تصرخ من بين شفتَي القبّة البيضاء، وتنطلق من الوادي إلى التلال والقرى المجاورة.

وشرَّع الجيران أبوابهم باكرًا. وهفّت نكهة القهوة من النوافذ المشرعة. وامتلأت الأَطباق بالحلوى الشهيّة.

مرّة واحدة، في كلّ عام، تُخرج جدّتي الطبق الرخاميَّ المزركش لترصف فوقه ضيافة العيد.

ألمحُ أصابعها اليوم وهي تتلمّس الصفحة الباردة، تحنو عليها بعطف، كما تتلمّس الثياب المخبّأة في الصندوق الخشبيّ العتيق. بعضها باق من جهاز العرس!

وتردّد جدّتي عبارتها التقليدية: «رزق الله عا أيّام زمان!...»

استعدّ الشباب للعيد، وبدأت وحداتهم تطلّ من الأزقّة لتتجمّع في ساحة الكنيسة.

«تودّعي يا مِرسال. تودّعي من العيد...»

شيَّعتنا أمّي بعينيها ونغمة صوتها حتّى باب الدار. ثمّ انصرفت لقضاء بعض الأعمال. وسرتُ مع مِرسال إلى ساحة الكنيسة.

كانت مِرسال ترتدي ثوبًا جديدًا يتحدّى بألوانه مروج القرية، وقد صفّفت شعرها بطريقة تنسجم مع نضجها واختمارها بالتجربة الجديدة. وظلّت طفولة بريئة تتموّج في عينيها الساهمتين، وقد بدتا، لأوّل مرّة، غريبتين في عرس القرية.

مِرسال عروس الموسم.

وأثار وجودها موجة من الذهول والهمس.

الأطفال المتجمهرون في زوايا الساحة راحوا يتخابثون بضحكات عارية. والشباب تحوّلت أعينهم بحسرة صوب العصفورة العذبة التي ستطير، بعد أيّام، من أجوائهم، وأخذ كلّ منهم يبدّل حسابه.

وصبايا كثيرات عجزن عن إخفاء غيظهنّ، وعضّة الغيرة في صدورهن: لِمَ اختارها الفارس الملثّم وحدها من دونهنّ؟

كانت سعدى تقف مع بنتيها قربنا، فتطاولت بيدها لتلمس ثوب مِرسال: «شو هالحلو يا مِرسال؟ انشاء الله بتتهنّي، وبتوصلي بالسلامة!».

ثمّ لم تلبث الأفكار الفرديّة أن انصهرت في حلبة الدبكة، وتشابكت السواعد والأيدي بعزم ومرح، وثارت الأقدام حين نفخ هاني في «منجيرته» القصبيّة، وبدأت الأرض تئنّ.

وظلَّ الجرس يخلع شرايين قلبه. وبقي صداه النحاسيّ يتلاقى مع أنين القصب وثورة الأقدام الفتيّة. وكان أبو الياس وأبو راجي يراقبان المشهد من ركن بعيد، وقد اعتمد كلٌّ منهما عكّازه، وأطلق لخياله العنان.

«كفاني عذابًا يا منى! تعالَيْ ننصرفْ من هنا...»

ولم تنتظر مِرسال جوابي. نفرت من جانبي كالقطّة المذعورة. وتبعتها إلى بيتها حيث تنتظرها الحقائب الفارغة والأثواب الحائرة.

كان صباح غدٍ موعد سفر مِرسال. وكانت تلك اللحظات هي الباقية لنا، ننعم فيها بالأَحاديث الحميمة، الأَحاديث الساذجة التي تضمّخ نفوس الصبايا.

وراحت تنبش في الأَدراج، تختار منها ما تحتاج إليه في رحلتها. وتمسح من حين إلى آخر دمعات أبت إلّا أن تشارك في انفرادنا.

«لو كنتُ مسافرة معه لما بكيت يا منى، ولكان لاستعدادي غير هذا الطعم المغمَّس بالغبار. ولكنّي أحيا الآن على أمل لقياه هناك. سوف يتحرَّك ضميرك

بالملامة يا منى. قولي ما شئت. قولي إنّها خيانة. أجل، ولكنّي الآن متّجهة إلى أعظم خيانة، خيانة نفسي وعاطفتي. إنّي مقبلة على بيع جسدي من هذا الغريب الذي يُدعى «جون». والثمن هو هربي من هنا، وتقريب خطواتي من دروب يسير عليها راجي.

سوف أقدّم لجون جسدي وأخون عاطفتي. وبعدُ، ما همَّني ماذا أخون، ومن.

تصوَّري، يا منى، حياتي موزّعةً بين رجلين، وكياني مشدودًا إلى عالمين: هناك رجل أحبّه، وآخر أخضع لمشيئته، يستعبدني، يشتريني. لو بقي راجي لما فصلت روحي عن جسدي، وعشت في هذه الازدواجيّة المريرة.

أهذه نهاية مثاليّتك، يا منى؟ أهذه نتيجة أحلامنا وتأمّلاتنا؟ أتذكرين؟

ولكن من المُلام في ذلك؟

هو... راجي.

لو أراد لما ترك هذا الجرح الدامي في صدري. وربّما راجي بريء، ويقع اللوم على هذه القرية العاجزة، وتلك الآفاق المحدودة التي لم تتّسع لطموحه ولخفق جناحيه القويّين...»

ظلّت مِرسال تقذف بالكلام، وتشرق بالدموع، وتعبّئ الحقائب، وتقفل الأَدراج، وأنا لا أجد ما أقول لها.

لقد أفلت الزمام من يدي، وارتمت هي بين عواصف ثائرة تقذف بها بعيدًا وتغيّبها في أجواء غريبة.

ورأيتها تبتعد أكثر وهي تضع رزمة أوراقها بين يديّ، في صباح اليوم التالي: «من يدري، يا منى، كيف تدور الأيّام؟ هذه الأوراق لن أحملها إلى بلاد الغربة، خذي احفظيها، واذكريني...»

كنّا نقف تحت شجرة الأزدرخت عند زاوية دارنا، وكان المودّعون ينتظرون مِرسال ليشتركوا في قذفها إلى أشداق المجهول.

لِمَ تركتِ، يا مِرسال، أوراقك بين يديّ؟

كانت الصداقة تقضي بأن أحتفظ منك بذكريات أخرى: عقد ألفّه حول عنقي، ويجيء يوم تنفرط حبّاته وتضيع على الطريق.

أو قرط يبرق، ويبطل استعماله بعد أيّام، فأقفل عليه علبة الحلى.

أو سوار رخيص يبهت لونه بعد ساعات، مثل الأسورة التي كنّا نشتريها من شامل.

أشياء صغيرة لا تخدش الذات، نلفّها حول العنق أو المعصم، أو نضعها فوق الصدر، ثم ننساها حين نتابع رحلتنا في دروب الحياة.

وهديّتك أقصّت مضجعي، وأقلقت وحدتي، يا مِرسال.

حملتُ رزمة الأوراق ورحتُ أبحث عن مكان أخفيها فيه، وأُبعدها عن أذى العثّ والذباب والأيدي الفضوليّة.

وفي كلّ صباح كنت أفتح عينيّ على الدرج، أبحثُ عنها، أحرص عليها كما يحرص البخيل على ليراته الصفر.

وبدأت صفحاتها تبهت وتصفرّ. لقد عبثت بها يد الزمن. وصلت إليها في الركن القصيّ من الدرج المظلم.

واكتشفت ديدان العثّ مخبأها فسارت إليها، ولم تعد التهوية تفيد شيئًا.

أوراقك مرتمية بين يديّ، منهوكة، خائرة، هرمة.

أوراقك هذه خلاصة تلك اللحظات الثمينة التي عشناها في أجواء المرح والانطلاق، عصارة الدموع الحارة ونور عينيك في ليالي الأَرق كلّها بين يديّ.

مِرسال!

لِمَ تركتها بين يديّ، يا مِرسال؟

لقد نسي الجميع لون عينيك. حتّى أمّك، لم تعد تنتظر وقع قدميك على بلاط الدار. أخضعَها الزمن لسلطانه، فبدأت تنسى، وتألف حياتها بدونك، ولا تترقّب النور يشرق في أجواء بيتها مع إطلالة كلّ فجر.

وهبّت الرياح «القبليّة» فمسحت اسمك من سجلّات القرية، ومحت آثار أقدامنا فوق الدروب الضيّقة، والسطوح الساهرة في ضوء القمر.

«عطيناهم قول!»

وظلّت العبارة تلاحق نجلا، تؤرق لحظاتها.

وارتمت فوق السرير وفي يدها قلم وورقة، وراحت تصبّ ثورتها في سواد الحروف: «يا كمال!

أعطَوْهم القول عليّ. أمّي وأبي وإِخوتي وسكّان القرية جميعهم أعطوا القول لسليم.

قالوا له: «سوف تكون نجلا عروسة لك.»

عبارة واحدة تصدر حكمًا يدوم مدى العمر، وأقوم أنا بتنفيذه.

أنا، يا كمال، الفتاة التي اختارها قلبك من بين عرائس القرية.

هل كنت تعلم، وأنت تدسّ كلماتك الشهيّة في سبيلي، أنّ هذه الكلمات ستتحوّل إلى سمّ زعاف، وتقلب حياتي كلّها إلى جحيم، وتضمّخها بعبير الموت؟

لقد استعجلَت كلماتُك وَأْدي.

في مساء هذا اليوم، يلتقون في دارنا، يسمرون في سهرة عارمة، يتلذّذون بأطايب الطعام والكلام. ويسردون حكايات الماضي والمستقبل. ثم يقترب كبير الجماعة ويمسك بيدي، ويقودني إلى ثغر الهاوية.

سأصرخ كثيرًا في هذه الليلة يا كمال. سيتعالى صوتي، ويخبط جدران صدري، ويمزّق أعصابي وقلبي، ولن أسمح لأحدهم بأن يسمعني.

حتّى أمّي لن تسمع صوتي، أمّي التي حملتني أحشاؤها تسعة أشهر، ونام قلبي في جوار قلبها، طوال تلك المدّة.

لن تقوى أمّي على سماع صوتي، لأَنّ جدران الكلس بدأت ترتفع في أذنيها مذ شقّت صرخاتي صمت وجودها، مذ انفصلتُ عنها لأكون الجيل الآخر.

ولكنّ الرياح التي تمرّ فوق دارنا ستحمل أصداء صوتي إلى البعيد، في الأَيام المقبلة، إلى الأَبناء والأحفاد.

وهذه الرسالة تحمل إليك آخر ما يمليه القلب. ففي هذا المساء أشترك معهم في وَأْد هذا القلب، يا كمال!

منذ الليلة أُصبحُ خطيبة سليم، أحمل خاتمه في أصبعي، أطوّق عنقي بطوق الحديد البارد القاسي.

وفي صباح الغد، أكون زوجته، تستقبلني ذراعاه في كلّ مساء، وأنحني أغسل قدميه بمياه دافئة، وأعدّ له الحساء والغداء والقهوة المطيّبة بحبّ الهال. أنجب له الأولاد، أملأ دياره بثمار بطني، أمدّ أظافري إلى جلدي، أسلخه، لأَجعله أسوارًا منيعة تصون حياته وتحرس قلبه.

اسمعني جيّدًا يا كمال، وافتح لي صدرك برحابة، كما فعلت في تلك الليلة الفريدة. فإِنّ أحدًا سواك لن يسمع هذه الصرخة الملهوفة أستغيث بها قبل أن تبتلعني الهوّة السحيقة.

أتحبّني حقًّا؟

هل عندك الطاقة الكافية لتستوعب حبّي؟

أترك القرية إذًا، حفاظًا على حبنا.

أخاف أن تمرّ الأيّام فوق وجهينا، ونتقابل في لحظة، وتراني فلا تكاد تعرفني، ونصبح غريبين في دنيا حبّنا.

لذا أطلب منك أن تبتعد حتّى ألتقيك في كلّ مساء، ويبقى حبّك في صدري قصرًا دافئًا ألجأ إليه في كلّ لحظة، وكلّما مدّ زوجي إليّ ذراعيه ومرّغ شفتيّ بقبلاته.

سوف تبقى شفتاي تحملان طعم شفتيك، وتبقى الوسمة النارية بين جدران قلبي.

كنت أعجب كيف يبقى الكيّ فوق رؤوس أبناء قريتنا، أو على أجسامهم. تعرف كيف كانوا يشفون المرضى بالكيّ، ويتلاشى المرض، وتبقى آثار النار فوق الجلد، مدى العمر.

لم يكن حبّك مرضًا.

كان نفحة الحياة في حياتي، كان كلّ حياتي.

التقينا مرّة، يا كمال، وهذه اللقيا تعيش معي، تجاور روحي، أحرص عليها حرصي على نور عينيّ. فمن أجل حبّنا أرجو أن تبتعد...»

قرأت نجلا الرسالة، وانحنت فوق الورقة المبلّلة بالدموع تقبّلها، وتنفخ فيها لهاثها ودفق عاطفتها، ثمّ أمسكت بها وراحت تعصرها في قبضة يدها.

لقد غادرت حنّة دارهم قبل لحظات. حمّلتها أمّ هاني الرسالة الأخيرة: «عطيناهم قول!»

ونسيت حنّة في لهفتها أن تغلق الباب خلفها، وراحت قدماها تقلقان الدرب، وقد تدلَّت من شفتيها بسمة خبث ودهاء.

لقد نجحت في مسعاها.

وحرّكت لسانها بين جدران فمها تتذوّق طعم النصر والنجاح.

بقيت نجلا تراقب ما يحدث، من دون أن تفتح باب غرفتها. لقد تعوّدت أن تفهم كلّ حركة من وقع الصدى، من النغمة الخاصّة في صوت أمّها، من الأَحاديث التي يرسمها وقع الخطى على عتبة الدار.

وتلفّتت حولها تبحث عن منفذ تهرب منه، وتنسى الواقع الموجع، تصبّ فيه جام ثورتها، فلم يكن أمامها سوى قلم وورقة.

فكّرَت، بادئ الأمر، في أن تكتب رسالة إلى والديها، تدسّها في فراشها، ثمّ تهرب... ولكن إلى أين؟

وكمال، ماذا جرى له؟

لم تبصره منذ تلك الليلة. هل وصله التهديد؟ هل خاف من غضبة هاني وإِخوته وأبناء عمّه؟

كمال، ماذا جرى يا كمال؟

وراحت يدها تلاحق القلم، وهو يشقّ سبيله على الورقة، ويسابق أفكارها وثورة عواطفها.

وظلّ قلمها يصرّ، ويستحمّ بدموعها السخيّة، حتى طرق سمعها وقعُ أقدام تقترب من باب غرفتها، فعصرت الورقة، ثمّ أخفتها في صدرها، وقد قرّرت أن تحرقها وتخفي أثرها.

مضت ساعة وهي واقفة أمام المرآة تخاطب نفسها:

«مثّلي، يا نجلا. ابتسمي. ارتدي أفخر ملابسك، وسرِّحي شعرك هكذا. أجل، هذه الخصلة لا بأس إن ثارت فوق الجبين. ولا بأس بذبول خدّيك، امسحيهما بهذا المطرّي المنعش.

إِنّك تستعدين لاستقبال عريسك. هيّا نجلا. سليمٌ اسم زوجك بعد غد، رفيق عمرك.

بعد غد تصبحين وإِيّاه جسمًا واحدًا.

نجلا، تشجّعي.

أين أعصابك يا نجلا؟ أين بسمتك الساحرة؟

اسمعي. هذا وقع خطاهم. إنّه قادم مع أمّه. ستعيشين معها، مع أمّ سليم. وفي كلّ يوم تنهضين باكرًا، تقبّلين يدها، تحملين إليها قهوة الصباح. تستميتين تحت قدميها لأنّها أمّه، لأَنّه هو يخضع لها. هو ملكها، وسيزداد المتاع بوجودك.

امسحي القلق والحيرة من عينيك. خذي، هذا قلم الكحل. ذرّي بعض العطر.

يده تقرع الباب. وصل عريسك. أسرعي لاستقباله.

مثّلي، يا نجلا. تعلّمي كيف تجيدين دورك، لأنّ حياتك وقفٌ على إتقان هذا الدور...»

جرّت نجلا قدميها من أمام المرآة، وهرعت إلى الباب.

لقد تسمّرت قدماها بالأرض، وبات صعبًا عليها أن تقتلع مشاعرها من تلك النقطة.

وتطلّعت أمّ هاني إلى وجه ابنتها، فلم ترَ سوى الأَلوان والخطوط السود والحمر، فانشرح صدرها: «رجعت نجلا تهتمّ بمنظرها. شوف يا بو هاني، بنتك بلّشت تعرف قيمة الرجال...».

وأجاب أبو هاني وهو يُطلق ابتسامة راضية إلى وجه زوجته، وكأنّه يذكّرها بيوم زواجهما: «بلّشت تمثّل دور أمّها».

افتقدهم صيف ذلك العام فلم يجدهم.

مدّت الكرمة أثداءها المكتنزة. تدلَّت الأثداء متورّمة فوق الحديقة، ملاصقة بيت مِرسال. ولوّحت الشمس الحبّات فحوّلتها إلى لون وردي ضاحك. وظلّت الأَوراق الخضراء تنصب خيامها، تردّ الوهج المحرق عن الحبّات الغالية.

وحقول القمح خضعت لسلطان الحرّ، فشابت رؤوس السنابل، وانحنت مثقلة بحكمة الأيّام.

وظلّت الشمس تُصْلي المساكن الصغيرة المتواضعة، تلاحق الناس بسياطها الحامية، تلسع رؤوسهم، تتحدّى الكوفيّات البيضاء فوق رؤوسهم، تمسح سواعدهم بالنار.

وخرج الأَبطال يصارعون الشمس. وبقيت الشمس تتابع نضالها العنيد في حقول القمح.

وقفتُ في طرف الحقل، فوق أحد أجنحته الممتدّة عبرَ الآفاق، فوق صدر يتحدّى الكون.

كانت الدماء تنزف من باطن كفّيّ، من أناملي الصغيرة الطريئة، وتسحّ على الجذوع القصبيّة الجافّة، تعمّدها، تسطّر لها ميثاق عطفٍ وحنوّ.

وتحوّلت عيناي قليلًا. راحت نظراتي تتزحلق على رؤوس الحصّادين.

أبي والجيران والأصحاب...

تحوّلت قبضات المناجل إلى جمرٍ يُحرق، والتراب التهب تحت أقدامهم، وغلى الماء في الدَّوْرَقِ المحتمي بفيء الشيح.

وظلّوا كالعاصفة منطلقين. همّة الأبطال لا تفتر.

أصواتُهم كانت تقلق الغفوات الخاملة عبر الحقول.

والصبية الصغار خرجوا حفاةً يعمّدون أقدامهم الطريئة في أجران النار.

أطلّ على القرية بعضُ الغرباء. وجوهٌ غريبة لا تعرفها القرية إلّا في الصيف.

بعضُهم أبناء لها يقيمون في المدينة، ويعودون إِليها، كلّ عام، ليمتصّوا ضرعها، ويجرعوا حفنات خيّرة تُقيت أنفسهم بقيّة الفصول.

أولئك كانوا يرهَبون الصيف. كانت نساؤهم يحملن المظلاّت الواقية، يرددن بها قبلات الشمس الحامية.

لقد عاشت أرواحهنّ في الظلال زمنًا طويلًا، وباتت عاجزة عن تحمّل قُبَل اللهيب.

والرجال كانوا يُخفون صلعاتهم الذابلة تحت مناديل، وهم يقطعون المسافات القصيرة في الأزقّة، يتفيّأون بأشجار التوت والأزدرخت.

«باب الصيف واسع!».

قالت أنجلينا ذلك وهي تُخرج الحشيّة العتيقة لتضعها فوق المصطبة، ثم تربض فوقها لتكشّ الذباب، وتحصي حركات المارّة.

باب الصيف واسع.

تحوّلت السطوح إلى غرف منامة. وانتصبت الخيام تحتضن «الطراريح» المختنقة بالرطوبة، وتؤوي الأجساد المغسولة بالعرق.

«شفتِ؟ نجلا تخانقت مع سليم. وصل صوتهن لآخر الضيعة!...»

كانت سعدى تنقل البشرى، تفرّج بها غصّة دائمة في صدرها.

مرّة واحدة اجترّت الأفواه أخبار نجلا، ثم غيّبتها جدران المنزل الزوجيّ. لقد خارت قواها في تلك المرّة، وكشفت عن وجهها القناع، ثمّ أعادته، مغلوبةً على أمرها، لتعيش خلفه بقيّة أيّامها، ترتديه كالأديم الملتصق بلحمها وعظامها.

وكمال هجر القرية.

لم تصله رسالة نجلا، ولم يطرق بابها يعاتب أو يهدّد. لفلف النُدبة النازفة في صدره وتلاشى.

وخبّأته المدينة في إحدى زواياها المظلمة.

بات واحدًا من الغرباء الهائمين في الشوارع والأقبية المختنقة بالدخان.

وفي ذلك الصيف زارنا أحد الغرباء المصطافين.

كان له لسان شهيّ. الكلام ينزلق على لسانه سخيًّا سلسًا: «لماذا تبقى منى في القرية يا أبو سمير؟ بنتك خلقت لتسكن المدينة. حدّثتني أمس عن طموحها. منى فتاة طموح. دعْها ترافق سمير إلى المدرسة. تقتل مستقبلها إِن حرمتها العلم...».

عشقته في تلك اللحظة.

غمرته بنظرات دامعة.

وظلّ يحكي ساعات، وصوته يغور في أذنيّ «سنفونية» عذبة.

شمس جديدة أشرقت في ظلمة حيرتي.

في المدينة تبقى القمصان بيضًا، لا يغمسها العرق والغبار.

في المدينة تزول الشقوق من الأنامل والأقدام.

شمس المدينة لا تحرق، وشتاؤها لا يجمّد الأطراف.

في المدينة أدفن قلقي وحَيْرتي، وأودّع وحدتي القاسية.

هناك أتعلّم معنى الحياة، أتعمشق بسلالم تلامس الشمس.

كنت صغيرة، عديمة الخبرة. وكان في يدي دلو صغير وددت لو أرميه في بئر الحياة، الحياة الكبيرة المجلجلة في عالم خيالي.

وحملت الدلو، مع حوائجي القليلة، وأنا أمسح دمعات حارّة امتزجت بدموع أمّي وأبي وجدّتي، وحجبت عنّي الشمس الضعيفة، والغيوم المبعثرة في آفاق القرية.

وظلّت دموعي تكرج على وجهي وتغسله، والعربة العتيقة تستغيث على الدروب المهشّمة، تبعدني عن قريتي الصغيرة الهانئة.

بصقتني السيّارة في ساحة كبيرة، يملأُها صخب الباعة، وصرير عجلات القطر فوق الخطوط الفولاذيّة.

وطوّقتني أنظار شرهة؛ راحت تحملق فيّ وتعرّيني. ومدّت إليّ المدينة ساعديها.

شعرت بالاختناق، بحاجة قصوى إلى الهرب.

وظلّت المدينة تزحف إِليّ، وقد بدت كامرأة مستهترة، شعرها ينسدل فوق عُري صدرها، وذراعاها تمتدّان إليّ تطوّقانني، ثمّ تقذفان بي إلى إِحدى

حجراتها المظلمة، نقطة أخرى من النقاط الكثيرة الضائعة في جسد شوَّهته البثور، علامة استفهام تقف عند المنعطفات الكثيرة.

كنت صغيرة وعديمة الخبرة. اقتربت المرأة تفرك وجهي، تجرّح صدري بقبلات كالثلج، وتسجّلني غصنًا جديدًا من الغصون المبتورة، غصون قُطعت من أشجار التوت والسنديان والشيح في تلك الجبال العالية.

هل كان العلم وحده دافعي إلى الهرب؟

ولماذا بقيت العاصفة تخبط صدري وتهشّم أعصابي؟

غرقت في بحر الكتب. فتحت أذنيّ لأجرع الحِكَم التي يتفوّه بها أساتذة حكماء وقورون.

وفتحت عينيّ أشرب وجوههم، أرشف نظراتهم، أختبر أحاسيسي في النظر إليهم.

وسرعان ما أصبح الكتاب رفيقًا خاملًا، ومات الإشراق في عينيّ لتحلّ محلّه مسحة غباء. وعدت أتيه في بحار أحلامي. باتت الكتب المهرب الجديد الذي أركن إليه لأَنسى حيرتي وضياعي وشوقي الملحّ إلى الوجه المجهول، إلى طيف خلقته لأقتل برفقته وحدتي.

أذكر جيّدًا تلك اللحظات الضائعة من حياتي. ويعصر قلبي شعور النقمة والأَسى.

أذكر ساعة تجمّعت حولي رفيقات الصفّ معجبات بنجاحي، وارتفعت إليَّ نظرات الأَساتذة بفخر.

نجحت!

قطفت ثمرة أتعابي ناضجةً طيِّبة. تدفقت عليَّ الجوائز تقديرًا لاجتهادي.

وتهت في محيط ثنائهم. وظلّت أصواتهم تلاحقني حتّى دخلت غرفتي، وطرحت الجائزة على الأَرض، ورحت أدوسها بقدميّ، وأعتصر ألمًا ينخر صدري.

لم تُفرحني الجائزة، ولا أغراني النجاح. وددت لو أنام بين ذراعين تحنوان عليّ، لو أعود إلى لحظة من لحظات الطفولة أستشعر الدفء والاستكانة في حضن أمّي، أو أسير فوق التراب الدافئ في حقل يُجاور بيتنا.

تمنّيت لو ينفتح باب غرفتي ويدخل منه فارس أحلامي، فأرتمي بين ذراعيه، أبدّد قلقي ومخاوفي.

وقفزت إلى النافذة، أُطلّ منها على الملاعب الفسيحة لعلّي أراه.

وعاد السؤال الملحّ يطرق أذنيَّ: «والآن، ماذا ستفعلين يا منى؟»

السؤال نفسه، السؤال الذي يواجهني عند منعطف كلّ درب: ماذا سأفعل؟

لست أدري. لم أكن أدري شيئًا. كان الغد سحابة تائهة في سماء حياتي.

أذكر الآن تلك اللحظات الشريدة من حياتي.

إنّ عروقها تمتدّ حتّى الساعة. وتطنّ في أذنيّ أصوات الفراغ والهروب والألَم، مغمَّسةً بأحلام اليقظة وشوق الانتظار.

ولمّا استيقظت من أحلامي، جمعت قواي وانطلقت في الشوارع الطويلة المظلمة، شوارع المدينة، أبحث عن عمل أفتّت فيه أعصابي، وأهرق في تيَّاره دمي وماء حياتي.

«عزيزتي منى، اغتنمت فرصة لأَكتب إليك من هنا، من منفى اخترته بنفسي.

هذه فرصتي الوحيدة لأَخلو بنفسي وأكتب.

أكاد أنسى الحروف العربية، تلك الحروف الجميلة التي حفرت بها أوراقي القديمة. أتذكرين؟

أين هي تلك الأَوراق يا منى؟ أرجو أن تحرقيها إذا كانت لا تزال في درجك.

جون لا يزال في المخزن، وقد نام الصغار.

عندي ثلاثة منهم يا منى. إنّهم يزقزقون كلَّ صباح، مثل الحساسين، وينحشرون معي في هذا القفص الضيّق.

آه لو كان صغاري هناك، بين المروج، فوق حقول القمح، في الكروم!

ولكنّ الحسرة لا تفيد.

لن أبعث إليك رسمي، حتّى لا تريْ مِرسال اليوم. أفضّل أن أبقى في خاطرك الطيف الهائم بين الكروم، يقتات بالنسائم الطليقة، ويرنّم أناشيد الحياة.

حتّى الغناء، هنا، غريب الطعم، يا منى.

تسألين لماذا أكتب بعد ذلك الصمت الطويل؟

إنّ رسالتي هذه تسجّل تحوّلًا جديدًا في حياتي.

إنّها المفتاح لحياة أُخرى لم أعرف طعمها من قبل، إنْ في القرية، أو في هذا العالم الغريب.

أكاد أسمع سؤالك: وراجي؟

انتظري، يا عزيزتي.

المسافات في هذه البلاد بعيدة جدًا. وراجي لا يُقيم في الجوار. وهكذا عشت فترة طويلة في الانتظار، وهدهدة حُلمي المدلّل.

بقي راجي يعيش معي في البيت، يرافقني في المراحل الكثيرة التي قطعتها. كان إلى جانبي ليلة الزفاف. وكلّما كنت أضع أحد أطفالي، كان راجي يقترب منّي، يطبع قبلة على جبيني، ثمّ يحتضن يدي بكلتا يديه.

وكلّما خلوت بنفسي، أعود إلى تلك اللحظات النادرة في حياتي، فأهيم معك بين البساتين أو أعيش في عينَيْ راجي.

وفي كلّ مرة، كان ينتزعني من حلمي صوت المرأة الأخرى التي تعيش هنا، تعدّ طعام جون، وترفأ جواربه، وتنظّف ثيابه، وتنجب له الأولاد.

وجوني العزيز الطيّب لا يلحظ شيئًا من هذا.

إِنّه رجل أعمال، ساذج القلب، بلا خيال.

لقد علّمته أمّه كيف يعتني بالنقد، وينذر حياته كلّها لرأس المال، وينتشي بتخمة الصندوق.

وصباح أمس، كلّمتني صديقة لنا ودعتني، مع جون، إلى تناول العشاء مع بعض الضيوف من «البلاد القديمة».

وكان راجي هناك.

راجي، وامرأة شقراء لا تعرف لغتنا.

كدت أصرخ وأتراجع إلى الوراء، وأنا أخطو العتبة، لو لم أشعر بيد جون تضغط ساعدي.

اقتربت من راجي أهزّ يده وأتعرّف إلى زوجته، وأبحث في عينيه عن حكايتنا القديمة، فصدمني جدار من الجليد.

رأيت عرمة الأحلام تنهار على قدميّ، وسمعت وقع الحجارة المنهارة. وتلفّتّ حولي أحدّق إلى الحضور، أتأكّد من أنّهم لم يهرعوا إلى جمع الحجارة، وتنظيف السجّادة من غبار علق بها.

وعدت أتأمّل راجي من جديد.

لقد تحوّل كثيرًا يا منى. إِنه غير الشابّ الذي عرفته في القرية.

لقد زادت سنوات الرفاه سمنته، فاستدار بطنه، وتقلّص شعره عن صلعة داكنة، وتهدّل خدّاه، وبهتت نظراته. حتّى صوته كان صوت شخص غريب

أتعرّف إليه للمرّة الأولى.

وبدأت أفيق من الحلم، وأتحسّس مشاعري، وأبلسم جراح الخيبة في صدري.

علمت أنّ راجي وهب نفسه، كلّ نفسه، للمرأة الشقراء.

لقد احتضنته تلك المرأة غريبًا مهاجرًا وحيدًا، ودعته إلى دارها.

طوّقته بعطفها، وغذّت طموحه، وفتحت له مخزنًا كبيرًا.

وبقي للأيّام أن تنهي فعلها، فأخذ الزمن «يقولب» شكله ضمن الإطار الجديد. وذاق طعم النشوة والنجاح.

وظلّ يسير إلى الأمام جزعًا، خائفًا أن تعيده الأيّام إلى القرية.

كان راجي يهرب. وعلقت عيناي غبارًا خلّفه وراءه على الطريق، ثمّ غار كيانه في سحابة كثيفة من ذلك الغبار.

وبدوت أنا من خلف السحابة أثير جزعه من جديد.

أنا، في شكلي الحالي، امرأة ناضجة، وأمّ أولاد، وزوجة حكيمة.

أنا لا أشبه الطفلة المراهقة بين كروم العنب الزيتون.

وفكّرت، يا منى: إن حبّي لراجي كان وليدَ تلك اللحظات ضمن حدود القرية. وهو باقٍ، هناك، ملك ذرّات الغبار فوق الوادي ودرب الكروم.

كنت على خطأ حين حاولت أن أجرّ اللحظات خارج حدودها، وأفرض الأحلام على الواقع.

ربما أحبّني راجي بمقدار حبّي له. ولكنّ حبّنا رهنٌ بذلك المكان وذلك الزمان، ورضيعُ صدرٍ لا يعرف الغِشّ، صدر قريتنا.

والآن، لقد انصهر كلانا بنيران الغربة، ومرّ كلٌّ منّا في تجارب كثيرة، وحقّق كلانا بعضًا من الأحلام.

لو كانت الرسالة تسجيلًا لصوتي لتسمّعتِ قهقهاتي ونبرة السخرية في صوتي.

إنّي أضحك من امرأة حاولت أن تمدّ سِني المراهقة عبر جسر الحياة، وتغمس لقمة العيش في الأحلام والسراب، وتُرضع أبناءها حليبًا لم تفوّره نيران الحياة.

سألتك مرّة: «هل يموت الحبّ يا منى؟»، فلم تجيبي عن سؤالي في ذلك الحين.

ها أنا أعطيك الجواب:

لا، إنّ الحبّ لا يموت.

الحبّ مجموعة حبال سحرية تتدلّى من أبراج الحياة. وكلّنا يمسك بطرف الحبل إلى حين.

وتهبّ العواصف، تتلاعب بالحبال. ويرى الناس أنفسهم عبيدًا معلّقين في الهواء. أنفاسهم هائمة على طرف الحبل، وقلوبهم واجفة تنتظر ساعة يفلت من أيديهم أو ينقطع.

ويبقى الحبّ يذرّينا، يتلاعب بأرواحنا، ويقطع معنا مراحل العمر.

وحتّى لو أفلتت حباله فإنّ من انصهر بنيران الحبّ يبقى عبدًا له مدى الحياة.

إِنّنا أحياء ما دمنا نتعبّد لهذا الحبل السحريّ، يا منى، وما دامت أنهاره تتدفّق في قلوبنا، لكنّ الدفقات تخطئ هدفها أحيانًا، وتنصبّ في المجهول، في اللانهاية.

لم يمت الحبّ في صدري، يا منى.

كان الحبّ الدرس الأَوّل الذي فتحت عينيّ عليه، وسوف يبقى آخر رفيق لي إلى اللحد.

وحين وقفت أمام راجي، ليلة أمس، تلقّيت الصدمة التي يخلّفها انقطاع الحبل، ولكنّ الخيوط السحرية لا تزال متّصلة بشرايين دمي.

أنا اليوم امرأة ناضجة، كبرت بين عشيّة وضحاها. كبرتُ فجأة مثل نبات الفطر. وفي مرحلة النضج فقدت أشياء كثيرة، أهمّها نظرة الجدّ إلى الحياة، إلى الغد المجهول.

كنّا دائمًا نعيش في الغد. أتذكرين أحاديثنا عن الغد، يا منى؟

بقيت كذلك، هنا، حيث الناس يحيون اللحظة، يفنون فيها، يمجّدونها.

بقي الغد أكبر من الحاضر، والحلم أعظم من الواقع، حتّى كانت ليلة أمس.

أنا ناضجة.

أنا واقعيّة.

أنا لستُ مِرسال بعد اليوم.

وإذا ما عدت في الغد إلى أحضان قريتنا، إلى حضن أمّي، فسأكون كالسيّاح الذين يشوقهم أن يرَوا الشرق، ويتعرّفوا بسحره وغموضه. ولكنّ الفرق بيني وبينهم أنّي أعرف كيف أسير فوق الجسر، وأصل من أقرب الطرق.

أسمع صرير المفتاح في الباب. لقد عاد جون. أستودعكِ الله، وأمضي لأعدّ له العشاء.»

مِرسال

انقضت عدّة سنوات، وظلّت يداي تعملان.

لقد تقلّص تفكيري وانصبّ كلّه في يديّ، في رؤوس أناملي.

طموحي وآمال غدي، كلّها، أسكبها على أزرار الآلة الكاتبة، في الصفحات القاتمة التي يأمر بها مدير الشركة: «رسالة مستعجلة، يا آنسة منى...»،

«وماذا وردنا من برقيات، يا آنسة؟»،

«ماذا بشأن موعدي مع الوزير؟».

صوت المدير، وخبط الحروف القاتمة، هذا وجودي، كلّ وجودي، الحبل الذي يصلني بالعالم الحيّ.

وفي غرفتي الصغيرة، أعيش مع صوت جارتي.

صرخاتها تقلق هدأتي من الصباح.

مساوماتها مع بائعي الحليب والخضار والأقمشة لا تتوقّف.

إنّها الصورة المعكوسة لصرخات جاراتنا في القرية.

نسيت القرية طوال سنوات، قريتنا الحبيبة الوادعة.

لماذا لا أعود إِليها، وأضع حدًّا لهذه الغربة الدائمة، وهذه الوحدة التي تأكل أحشائي؟

هبطت الفكرة كالوحي.

وفي صباح اليوم التالي طرت إلى القرية. وكان شوق غامر يدقّ جدران صدري، ويدفع الحرارة في عروقي لتصل إلى أناملي.

كنت أتوقّع أن تخرج القرية لتستقبلني، وترحّب بالطائر العائد إِليها.

وظلّ الشوق يفور في صدري.

وبدت المساكن الصغيرة العزيزة هادئةً صامتة!

عند مدخل القرية ركض الصبية الصغار يستقبلون العربة الغريبة، ويتعرّفون الضيف الجديد القادم إليهم. تأمّلت وجوههم لعلّي أعرف أحدًا منهم، ثمّ تراجعت خائبة.

وأطلّت أمّ الياس تستطلع الخبر، فلمّا أبصرتني ردّت الباب الخشبيّ العتيق خلفها، وأوت إلى دارها.

جارتنا أمّ الياس لم تعرفني!

وحدّقت جدّتي إلى وجهي طويلًا. التفّت العائلة كلّها حولي تتأمّلني. ثمّ أدار الجميع رؤوسهم وابتعدوا، أو هكذا بدوا لي. وجدار الأيّام يرتفع ليفصل بيننا.

كانت أصواتهم تأتيني من بعيد، عبر سنوات الضياع والهيام.

كانت القرية كما تركتها، أمّا أنا فقد تغيّرت كثيرًا.

كان ترحيبهم بي شبيهًا بالصفعات العنيفة.

وجوههم أكّدت لي الرفض أكثر من القبول.

لقد رفضتني القرية لحظة انسحبت من وجودها، لأغرس قدميّ في تربة غير تربتها.

وخرجت إلى المصطبة، مرتع الطفولة. وقفت عليها أتلفّت إلى الدروب الضيّقة، دروب فرشتها، في غربتي، بالزبرجد والياقوت، ورصَّعتها بجواهر خيالي، فعادت تصفعني النتوؤات والتربة الموحلة، وقد أوت في شقوقها الحصى والنفايات.

وارتدَّت عيناي عن جدران المساكن خائرة منهارة: هذه البيوت عاشت في قلبي، تغذّت من أضلعي، نحتّها من المرمر والرخام. وها أنا أراها غبراء، دكناء، ترتدي ثوبًا من الغبار والدخان، وقد طليت جدران بعضها بالزبل والسواد.

شعرت بأنّ القرية محت اسمي من سجلّاتها، كما محت أسماء مِرسال، وكمال، وراجي، وسواهم.

وهرعت إلى السيارة، أهرب من الصفعات القويّة، وأعود في الطريق المتعرّج المتآكل، الطريق الذي حملني مرّة عبر الآفاق الحالمة.

وقبل أن أغيب عن أعين القرية، وقفت ألقي عليها نظرة وداع، وقد أفلت الزمام من يدي، وبتّ كرة طائرة بين مدينة تمسخني وقرية تنكرني.

وقفت هناك، أمدّ ساعديَّ للريح:

بطلة خائرة في حلبة الصراع،
نقطة استفهام على جبين الأَرض.